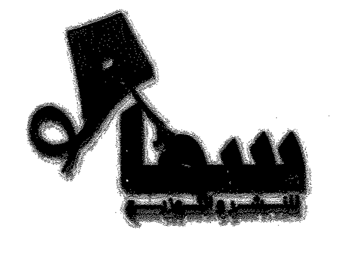
محمد العلي

ليالي الشبيحة

رواية

دار سما للنشر والتوزيع

ليالي الشبيحة



فهرسة
مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

813 العلي , محمد

ليالي الشبيحة , محمد العلي , ط1 - الكويت:

دار سما للنشر والتوزيع , 2013

144 ص , 19.5 سم

ردمك: 6 - 29 - 55 - 99966 - 978

1 - القصة العربية- الكويت أ. العنوان

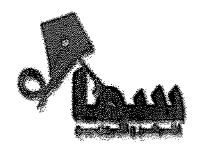
رقم الإيداع: 2013/538

تصميم الغلاف: صالح محمد

الإخراج الداخلي: محمد سعيد

نشر:

سما للنشر والتوزيع - الكويت



المدير العام:

يوسف العبد العيسى

www.Darsama-Kw.com

info@ darsama-Kw.com

Tel: + 96567076866

مُقَدِّمَة

إن مررتم على كلماتي هذه فلا تقرؤها، ولا تقفوا عند معانيها البائسة وحروفها العقيمة تابعوا مسيركم إلى متن الحياة والترفيه، أو اطرقوا باب المرح، لا تعكروا صفو نفوسكم الرقيقة بأفكاري البلهاء، لا تفكروا كثيراً ولا تقرؤوا شيئاً من تفاهاتي، فقد يكفيكم العنوان إن شئتم اشتموني أو اجعلوني عالة على عالمكم الراقي المليء بالتحضر والتمدن، لا تقفوا عند كلماتي، صموا آذانكم عن صرخاتي، تبرؤوا مني، وانسبوني إلى عالم الجاهلية والتيه والنسيان أو اجعلوني أخا لهبنّقه، أو احجزوا لي تذكرة ذهاب إلى حديقة يباب ضجت بجثث الأطفال والأشجار، واحفروا لي حفرة تتسع لقط بري وإن هالكم منظر الدماء على جسدي، فطهروا عيونكم، وارتدوا نظارة شمسية تحجب الألوان عندها ازدروني، وكفنوني بأوراق التين والزيزفون، فلم يعد في بلادي أكفان فالكفن أصبح نادراً كما الأفيون والأرواح، ثم رحّلوني إلى عالم الفناء وضعوا فوق قبري صخرة خطوا عليها:

هنا يرقد
مجهول الهوية

ليالي الشبيحة

كان الجو شديد البرودة كعادته في ليالي الشتاء التي تمر علينا في كل عام مكسوة بالزمهرير والمعاناة، وكان الليل حالكا ينثر القتام في كل مكان إلا في بعض المنازل التي تناثرت فيها الأضواء، ولم يكن للقمر في هذه الليالي حظ في الظهور.

أمعنت النظر في وجوه أفراد عائلتي فرأيتها عابسة قد غشيها الحزن والوجع، لكن أكثر ما أثار انتباهي هو نظرات أمي التي تكسوها الدموع والأحزان، اقتربت منها وأمسكت يدها وقبلتها بحرقة، ثم أخبرتها أن هذا الأمر مكتوب عليَّ وعلى غيري من الشباب وأنني سأكون بخير وستمر السنتان بسرعة البرق كما مرت على أخي صلاح.

كنت أقول هذه الكلمات وأنا غير مقتنع فيما أقول؛ لكنني حاولت أن أبث الطمأنينة في نفسها وفي نفسي التي شايعتها مرارة الوداع وألم الخوف مما هو قادم.

ازداد نحيبها ثم ضمتني إليها بقوة، وهي تدعو لي بالتوفيق وتبتهل إلى الله أن يحفظني من كل سوء، لم أستطع حبس دمعة انهمرت من عينيّ، وقد كان الحزن يغشى الجميع إلا أخي صلاحاً فهو الكبير بيننا وبدا أكثر صلابة منا جميعا، ربما لأنه مر بنفس التجربة، أو قد تكون الحياة التي عاشها في الجيش قد غلفت جدار قلبه بالقسوة والتجلد، لم يستطع الجميع من عائلتي حبس عبراتهم، لأن الأيام التي ستمر عليَّ ستكون صعبة وثقيلة جدا.

بدأ حزني يتفاقم منذ أن جاءت سيارة الشرطة ذات اللون الرصاصي ليخبرني أفرادها بضرورة الالتحاق بالجيش وقد أعطوني ورقة بذلك تسمى " المهمة " في عرف العسكريين وسيارة الشرطة هذه لا تزور بيتا في منطقتنا إلا ويتساءل الناس عن المصيبة التي حلت بذلك البيت، لأنها كانت نذير شؤم في كل شيء.

استوطن الخوف في قلبي لكثرة القصص المرعبة التي سمعتها ممن سبقوني وقسوة الحياة التي عاشوها هناك، وخاصة أن

جميع من أعرفهم قاموا بتشجيعي وأوصوني بالحذر المطلق في كل موقف يعترضني، فكانت تلك المواقف من أقربائي وأصدقائي تزيد من مخاوفي أكثر من طمأنتي، لكنني حاولت أن أبدو في نظرهم متماسكا وواثقا من نفسي وقدراتي؛ لكن بواطني تتمزق على وقع حياة مجهولة سأعيشها بعيدا عمن أعرفهم.

نبهني أخي صلاح إلى أن الساعة قد بلغت الحادية عشرة إلا ربعاً ولم يبق على موعد مجيء " الباص " سوى خمس عشرة دقيقة وعليّ الذهاب قبل أن يفوتني موعد الرحلة فأتأخر عن الالتحاق فتكتب عليّ عقوبات أنا بغنى عنها.

ودعت أفراد أسرتي بحرقة تكوي جوارحي وحمل أخي عمر حقيبتي التي امتلأت بألبسة شتوية وجوارب وعدد من شفرات الحلاقة وأصبغة الأحذية وقد أخبرني صلاح أنها ضرورية جدا في الجيش، وهو صاحب تجربة ويعرف ما هو ضروري هناك.

وصلنا إلى مكان وقوف " الباص " وما هي إلا لحظات حتى جاء، ودعت عمر وصعدت فأخبرني معاون السائق أن مكاني

في الوسط في الكرسي رقم تسعة عشر، كان الكرسي مزدوجاً يجلس بجواري رجل تجاوز الخمسين من عمره، ألقيت التحية عليه لكنه لم يرد لأنه كان يغط في نوم عميق، فألقيت بجسدي المتثاقل على الكرسي وراحت الأفكار تنهال علي من كل حدب وصوب، فتسربت المخاوف إلى نفسي من جديد عن مجهول ينتظرني في حياة لم أكن راغبا فيها يوما؛ لكنني مرغما عليها.

حاولت أن أطرد الأفكار عن رأسي بجرعة نوم أريح بها نفسي المنكسرة، لكنني لم أستطع وخاصة أن الرجل الذي يجلس بجواري قد أسند رأسه على كتفي وقد شعرت بالحرج من إيقاظه كما أن الرجل الذي يجلس أمامي لم يتوقف عن الشخير لحظة، كان جو الحافلة مزحوما بالصمت المطبق إلا من سعال عابر لأحد الركاب أو شخير يخرق ذلك الصمت.

كانت مخيلتي تعوم في تفكير عميق عما هو قادم في الحياة العسكرية وما كنت لأتخيل نفسي يوما بعيدا عن أهلي مجبرا؛ لكنه أمر مكتوب عليَّ كغيري من الشباب.

فقد عشت حياة هادئة وبسيطة تخلو من أي مشاكل كقلبي

الذي أضحى مفرغا من طيوف النساء إلا من طيف عابر كالحلم في أيام دراستي الجامعية، فترك في نفسي وقلبي بصمة تمضي السنون دون محوها قطع سلسلة أفكاري الرجل الذي يجلس بجواري وهو يقول:

- ما سبب سفرك هذا إلى مدينة حلب؟

- قلت له: أنا عسكري.

امتعض وتغيرت ملامحه وأردف قائلا:

- كم بقي لك لتنهي خدمتك في الجيش؟!

- هذا أول يوم لي.

رد بصوت فيه بعض المواساة:

- كان الله في عونك لا عليك هي ليالٍ وستمضي. لكن انتبه لنفسك جيدا، وكن حذرا ولا تخش شيئاً.

كانت كلماته سببا في ازدياد مخاوفي؛ ولا أدري لماذا يصر الناس على تهويل ما أنا مقبل عليه؟!، ويقومون بمواساتي ومحاولة التقليل من روعي رغم أن الجيش لم يدخل في

معركة مع أحد منذ سنين طويلة لكن طبيعة القائمين عليه وتصرفاتهم جعلته كتلة من القسوة والذل والمعاناة.

قاطع حديثنا معاون السائق وهو يقول:

- لقد وصلنا إلى الاستراحة، فمن أراد النزول فليفعل.

قررت النزول مع من نزلوا فكانت نفحات البرد كسياط تجلد أذني، دخلت الاستراحة وطلبت كأسا من الشاي علها تبث الدفء في أرجاء جسدي.

تناثر الركاب على الكراسي داخل الاستراحة فعج الجو بدخان السجائر والصمت المطبق.

وكان كل واحد من هؤلاء الركاب يحمل هما في داخله وقد بدا ذلك على وجوههم المثقلة بالتعب والنعاس ولا أحد يقطع هذه المسافة الطويلة إلا لأمر يهمهم، إما لمعالجة مرض ما أو للالتحاق بالجيش أو لأمر آخر، حيث كان سفرنا طويلا وشاقا لأن المسافة تتجاوز الخمسمائة كيلو مترا.

كانت مدينة حلب تعرف بالمدينة الصناعية فقد كانت البوابة الكبرى للصناعة في سوريا بل في الوطن العربي كله، وفيها

كل أشكال الزراعة والطب المتطور حيث تجد أمهر الأطباء فيها أما بالنسبة للجيش ففيها ثكنة " هنانو " وهذه الثكنة هي أول ما يلتحق به العسكري عند انضمامه للجيش حيث يقضي فيها فترة الدورة ثم يتم فرزه إلى مكان آخر.

تذكرت أمي التي ودعتني بعبرات أثارت شجوني ولهيب أحزاني فتساءلت في نفسي عن حالها في هذا الوقت؟! أظنها لازالت مستيقظة رغم أن الوقت قد جاوز منتصف الليل بكثير ودخل بوابة الفجر، قطع شرودي صوت معاون السائق وهو يقول:

- لقد انتهى وقت الاستراحة، فتفضلوا بالصعود إلى الباص.

عدنا إلى أماكننا، وكان الرجل الذي يجلس بجانبي قد أسلم عينيه للنوم من جديد. كان السفر طويلا يستغرق حوالي خمس ساعات ويحتاج المسافر في هذا الوقت لراحة جسده؛ لكنني لم أستطع إغماض عيني رغم أنني سافرت مرات كثيرة وكنت أنام أثناء سفري لكن هذه المرة تختلف عن كل المرات السابقة؛ لأن الهم والخوف استوطنا قلبي ومخيلتي فاستحال النوم عند ذلك.

كان السفر سابقا بالنسبة لي متعة لا توصف؛لأني كنت أسافر للدراسة في العاصمة دمشق وكانت أيام الجامعة أجمل مراحل عمري التي عشتها، لكنها ذهبت كعادة الأيام الجميلة التي تنقضي بسرعة ودمشق لا تشبه أي مدينة أخرى في هذا العالم فسحرها يذهل العقول، ويجعل القلوب تهفو إليها كل حين، أما أهلها الدمشقيون فيمتازون بدماثة الخلق ورقة الطبع ورزانة الأسلوب وحتى اللهجة الشامية لها سحر غريب يجمل الكلم ويرفع قدر الحديث.

الحياة الجديدة التي أقبل عليها صعبة للغاية، وسيكون لها تأثير كبير حتى على طبيعتي التي اعتدت عليها خلال سنوات عمري السابقة، هكذا أخبرت ممن سبقوني، وعاشوا تلك المرحلة، شعرت بالخوف يتعاظم في مخيلتي كلما اقترب موعد الوصول، فخطر في ذهني أن أعود أدراجي، وألا ألتحق بالجيش؛ لكنني سرعان ما طردت الفكرة من رأسي ؛ لأنني سأبدو في نظر أهلي ومعارفي جباناً وهارباً كما أن الهروب يعقد المسالة أكثر

ويجر الويلات عليّ، فقررت تشجيع نفسي والمضي في طريقي.

شعرت بالتعب قد نال من جسدي فداعب النعاس جفنيّ، وأسندت رأسي للكرسي، وأسلمت جوارحي للنوم، لكنني ما لبثت أن استيقظت على صوت معاون السائق:

- الحمد لله على السلامة لقد وصلنا.

كان الأمر أشبه بكابوس مرعب بسبب لحظات الوصول التي قربتني من عالمي المحزون، بدأ الركاب بالنزول فنزلت وأخرجت حقيبتي، وجاء إليَّ سائق تاكسي يعرض عليَّ توصيلي إلى المكان الذي أقصده، لكنني رفضت، وقررت صعود " المكرو " لأن أجرته أقل بكثير من أجرة التاكسي وأنا بحاجة لكل قرش أحمله معي في حياتي الجديدة.

صعدت " المكرو " وطلبت من السائق أن يتوقف بي عند الموقف الذي يقود إلى ثكنة هنانو

فقال السائق:

- هل أنت عسكري جديد؟

- نعم، كيف عرفت؟

أجاب بأن كل من يأتي إلى ثكنة هنانو يكون جديدا في الجيش لأن أغلب العساكر يقضون دورة الأغرار فيها تمنيت لو أنني بقيت سنة أخرى قبل التحاقي علني استجمع قواي بشكل أفضل لكنها الأقدار مكتوبة علينا وتسير بنا إلى ما لا نعلم وربما إلى ما لا نرغب.

الفصل الثاني

وصلت إلى الثكنة وكانت الساعة تشير إلى الثامنة وثلاث عشرة دقيقة صباحاً، كان مدخل البوابة كبيراً جداً يقف عليه أربعة حراس مدججين بالسلاح، أخبرت الحراس أنني عسكري جديد، وأريتهم «المهمة»، فسألوني عن اسمي والمحافظة التي أنتمي إليها وعن دراستي، فضحكوا كثيراً عندما أخبرتهم أنني أستاذ، فهمس أحدهم بأذني:

- أتعلم ما معنى أستاذ في الجيش؟!

هززت رأسي غير عارف بمعناها. فقال:

- أستاذ في الجيش تعني " حمارا " لذلك لا تقلها مرة أخرى كي لا يسخر منك أحد. ضحكت في قرارة نفسي على ما أنا عليه فلم أكن لأتصور أنني قضيت ستة عشر عاماً على مقاعد الدراسة لأتخرج في النهاية حماراً في عُرف الجيش.

أدخلوني إلى الثكنة وكانت المفاجأة كبيرة عندما رأيت عددا كبيرا من العساكر الجدد أمامي، شعرت ببعض الارتياح لوجودهم، لأنهم قد يؤنسون وحدتي التي تكالبت عليها الهموم والمخاوف، جلست معهم منتظراً دوري في التفتيش الذي يقوم به عدد من الجنود القدامى ؛ لذلك فصوتهم يعلو مرات كثيرة على العساكر الجدد وقد يشتمونهم دون أن يتجرأ أحد العساكر الجدد على الرد ظناً منه أنه القانون الذي يمنح العسكري القديم السلطة على الجديد وقد كان التفتيش بطريقة همجية، فهم يقومون بإفراغ الحقيبة كاملة على الأرض بعد ذلك ينثرون ما بدخلها في كل مكان.

بعد حوالي ساعة تقريباً جاء دوري للتفتيش، وعندما انتهيت توجهت مع بعض العساكر إلى داخل الثكنة.

كانت الحواجز كثيرة ومتناثرة على مداخل الثكنة بعد ذلك وصلنا إلى ساحة كبيرة فوجدنا طوابير من الجنود يقفون بانتظام لتسليم " المهمة " تحت وقع الشتم والضرب من قبل بعض الجنود والضباط.

مرَّ الوقت بطيئاً، فنال التعب مني بشكل رهب، وتسلل الجوع والنعاس إلى نفسي، وقد قضيت ساعات طويلة مع بعض الجنود الأغرار منتظراً ظهور اسمي لأستلم المهمة وهي مهمة خاصة بالضباط الأغرار وبعد العصر بحوالي ساعة ونصف استلمت مهمتي وتوجهت بها إلى كلية المشاة لتسليمها هناك وعند البوابة الرئيسية وجدت ضابطاً برتبة نقيب ومعه عدد من المجندين للتفتيش، وكنا حوالي أربعين مجنداً جديداً، فأمرنا الضابط بالانبطاح وفتح سحاب الحقائب بأسناننا، فعلنا ذلك دون اعتراض خشية العقاب الذي كنا نسمع به دوماً بعد ذلك دخلنا وأمرنا الضابط بالتوجه إلى مبنى الطلاب الضباط.

وصلت إلى المكان المطلوب فقرعت الباب وسمعت صوتاً بالداخل يأمرني بالدخول، كان ضابطاً برتبة عقيد ويسمى قائد الدورة، فقام بتسجيل اسمي، وأرسلني إلى الفصيلة الثالثة وكان المسؤول فيها ضابطاً برتبة ملازم أول وفي اليوم الثاني وقفنا في أربعة طوابير وبدؤوا بحلاقة شعر كل واحد

منا؛ لأننا نعتبر أغراراً.

شعرت بامتعاض داخلي؛ لكنني كتمته وعندما جاء دوري وبدأ أحد المجندين القدامى بحلاقتي بماكينة حلاقة يدوية شعرت أنه يقوم بجز فروة رأسي، فتجمدت أعصابي من شدة الألم، فقمت بتحريك رأسي، ولم أدرِ إلا وصفعة قوية تجلد رقبتي من يد المجند وهو يقول:

- «نزل راسك ولك كلب».

شعرت بالإهانة لأول مرة في حياتي؛ لكنني لم أردَّ ولو بكلمة واحدة من كثرة الوصايا التي تلقيتها بالابتعاد عن المشاكل، فبقيت منحني الرأس دون حراك حتى انتهى المجند من الحلاقة.

كان الجو شديد البرودة، فشعرت بحرقة في رقبتي بسبب الشعر، ومددت يدي لأزيله عن رقبتي فشعرت بلسعة تلف أذنيّ ورقبتي، وعندما انتبهت كانت ضربة سوط من أحد المجندين مردداً:

- «وقف باستعداد ولك جحش».

لم أدرك سبب الإصرار على تشبيهنا بالحيوانات، ومن تقليل احترامنا في كل لحظة تمر ربما يكون السبب وراء ذلك هو إذلالنا، وربما لتعويدنا على حياة التقشف والقسوة؛ لكن الغالب أنه طبع تطبع به أغلب من دخل الجيش، فأصبحت تلك الألفاظ لا تفارق شخصيته، حتى في الحياة المدنية يُعتبر العسكري أدنى المستويات الاجتماعية بنظر الناس سواء كان ذلك في الطرقات أم في الأسواق أو في أي أماكن أخرى.

أدركت في هذه اللحظات سوء ما أنا مقبل عليه وعرفت سبب امتعاض الجميع من التحاقي بالجيش.

كنت أظن نفسي محترماً في نظر الآخرين كوني مثقفاً، وأحمل شهادة جامعية لكن هذا اليوم في الجيش غلب موازين حياتي خمسة وعشرين عاماً عشتها دون أي موقف يقلل من احترامي؛ لأنني لست من هواة المشاكل أو التدخل فيما لا يعنيني.

كان البرد قارساً، فتلونت جلودنا بالحمرة لشدة البرودة، وقد أصبحت الساعة تشير إلى الواحدة ظهراً، وكان أحد الضباط برتبة ملازم أول يقف أمامنا فوق منصة عالية، فأمرنا بالانصراف والتوجه إلى المطعم؛ لتناول طعام الغداء، كنا حاولي أربعين مجنداً من الضباط الأغرار، وما جعلنا من فئة الضباط هو شهادتنا الجامعية، فأغلب خريجي الجامعات يدخلون الجيش برتبة ضباط مجندين.

أما الأغرار فهو لقب يُطلق على كل عسكري جديد، ويظل هذا اللقب يصاحبه حتى يجتاز شهور الدورة من خدمته العسكرية عندها يتخلص من لقب عسكري غر.

توجهنا إلى المطعم، وكان عبارة عن صالة كبيرة تناثرت فيها بعض الطاولات المصنوعة من الحديد غير مصحوبة بكراسي؛ لذلك علينا أن نأكل ونحن واقفون.

كنت أشعر بجوع شديد؛ لكثرة ساعات الانتظار والتعب الذي نال من قواي، أما الطعام فقد وُضع في قدور كبيرة،

وتم توزيعه في أواني صغيرة تسمى قصعات والقصعة عبارة عن إناء مستدير تشبه كفة الميزان القديم؛ لكنها تبدو قديمة جداً، قد مر عليها الكثير من الجنود السابقين.

وضعوا قصعة لكل ثمانية جنود، ونظرت إلى الطعام فكان عبارة عن رز وفاصوليا تم خلطه ولم يكن هناك معالق أو خبز في هذه الأثناء سمعت صوتاً مدوياً:

- انتباااااه، من أحد الرقباء حيث قدَّم التفقد لضابط برتبة عقيد وأخبره بأننا جاهزون لتناول الطعام فقال:

- ابدأ بتناول الطعام.

قام الجنود بتناوله بأيديهم، فمددت يدي ووضعت لقمة في فمي فشعرت بوخزات تلفح لساني من شدة الملوحة فبلعتها على الفور، ولم أستطع أن أعيد الكرة مرة أخرى فهمس إليّ أحد الجنود:

- أكمل طعامك فحياة الجيش قاسية وعليك أن تعتادها.

وما هي إلا دقائق حتى أجهز بعض الجنود على الطعام كله

من شدة الجوع رغم ملوحته وسوء مذاقه، أما البعض الآخر فامتنعوا عن تناوله لامتعاضهم من سوء مذاقه.

جاءت صرخة مدوية من قبل الرقيب وهو يردد:

- انتبااااااه

- استعد الجميع وأصغوا دون حراك، ثم أمرنا بالانصراف إلى مهاجعنا، فتوجه كل منا إلى مكانه؛ ليرتاح، وجلس بعضنا بلباسه العسكري خشية أن يطلبونا للاجتماع في أي لحظة، أما البعض الأخر فقد خلعوه، واستلقوا على أسرتهم، وقد جلستُ على السرير، وراحت الذكريات تطوف بي في عالم الحياة المدنية حيث الأيام الجميلة التي لا تُنسى، وقد كنت محض احترام لكل من يعرفني وخاصة من طلابي في المدرسة الذين كنت أدرسهم.

كان الحنين يلهب رغباتي إلى تلك الأيام حيث كنا نشكل مجموعة رائعة من المعلمين والمعلمات، وكنا نعيش كأننا أسرة واحدة تسودها المحبة والألفة.

قطع سلسة ذكرياتي صوت الرقيب وهو يقف عند مدخل بوابة المهجع ويصرخ علينا:

- انتباااااه....

- خلال خمس دقائق أريد رؤية الجميع باللباس العسكري بالساحة.

خرجنا نهرول باتجاه الساحة؛ لكن بعض العساكر قاموا بارتداء لباسهم العسكري الذي خلعوه عند دخول المهجع، فتوجه الرقيب إليهم مع اثنين من العرفاء، وبدؤوا يرفسونهم بأقدامهم ويشتمونهم، لأنهم كانوا قد خلعوه، وتأخروا بعض دقائق، وقفنا في أربعة طوابير فرأينا أحد العساكر يحملونه في نقالة، ويتوجهون به إلى المستوصف، فسألت الجندي الذي يقف أمامي عن قصته فأخبرني أن الرقيب رفسه على وجهه بقدمه فأغمي عليه.

جاء إلينا أحد الضباط برتبة عقيد، يطلقون عليه اسم

ضابط الأمن جلس في المنصة على كرسي كبير وأمامه طاولة مغطاة بقماش أحمر اللون، فأمرنا بالجلوس في الساحة العامة على الإسفلت، فرحب بنا في بداية حديثه، ثم بدأ يتحدث عن الجيش وقدسيته والالتزام به ووجوب الوفاء للقائد والوطن، ثم تلا علينا بعض التعليمات منها طاعة الأوامر مهما كانت والاهتمام بالرياضة؛ لأنها شيء أساسي في الجيش، وحذرنا من الهروب؛ لأنه سيجر علينا عواقب وخيمة؛ لكن الأمر الذي أذهل الجميع هو منع الصلاة حيث أخبرنا أن الصلاة ممنوعة هنا، وأي مجند يُكتشف أنه يصلي سيعرض نفسه للعقوبة والسجن، وكانت الحجة بذلك؛ أننا هنا في خدمة الوطن، والواجب يحتم علينا تفريق وقتنا كله للوطن، أما الصلاة فهي للحياة المدنية وليست للجيش.

شعرت بالذهول مما سمعت، وخاصة أنني ملتزم بالصلاة منذ طفولتي، وأدرك عواقب تارك الصلاة،

وقد عشت عمري كله وكل من حولي يحثني على التمسك بالصلاة، وأغلب الناس يحترمون، ويقدرون الملتزم بصلاته فكيف لي أن أتخلى عن أمر غُرس في قلبي وعقلي منذ سنين؟!.

قررت في نفسي ألا أترك فريضة صلاة مهما كانت العواقب لأن عقوبة البشر لا تساوي شيئا أمام عقوبة الخالق؛ لذلك نويت أن أوأدي الصلاة في السر تفادياً للعقوبة والسجن، وكان أخي قد نبهني لهذا الأمر؛ لكنني لم آخذه على محمل الجد.

بعد انتهاء الاجتماع أمرنا الضابط بالانصراف، فعدنا إلى مهاجعنا يكسونا الذهول والتعب، قال لي أحد الجنود واسمه مصطفى من محافظة حماة إنه لن يترك الصلاة حتى لو قتلوه، فأخبرته أنني أوافقه الرأي؛ لكن علينا الحذر والتزام السرية في الأمر لكنه رفض، وأصر على أن يصلي علانية دون خوف من أحد، حاولت أن أقنعه بضرورة السرية في هذا الموضوع، ولكن دون جدوى

دخلنا المهجع، وكان الوقت يلوح بين العصر والمغرب، فذهب مصطفى، فتوضأ، ثم عاد وكبّر للصلاة، وبدأ يصلي صلاة العصر كانت عيون الجنود تترقبه بذهول واستغراب، وكأنه يعلن التحدي على أمر خارج قناعات البشر، وصل مصطفى للركعة الثالثة، فدخل الرقيب والعريفان المهجع، وكأن " هناك من أخبرهم، فهجم الرقيب على مصطفى وهو واقف للركعة الرابعة فجلده بكل قوته بكبل كان يحمله، لكن مصطفى لم يتحرك فرفسه بقدمه رفسة قوية ألقت به على الأرض، فهم الرقيب والعريفان بجلده وهو ممدد على الأرض بعد ذلك أخذوه ووضعوه في السجن.

أما بالنسبة لي فقد بقيتُ أوأدي صلاتي سراً دون أن أُشعر أحداً بذلك، بقِي مصطفى في السجن عشرين يوماً، وتلك الأيام قد أُضيفت لخدمته العسكرية، وعليه أن يقضي سنتين وعشرين يوماً، حيث يشير قانون الجيش بذلك؛ لأن أيام السجن لا تحتسب ضمن أيام الخدمة

وبعد خروج مصطفى من السجن أصبح مراقباً من بعض الجنود الذين وضعهم الضباط للتجسس علينا، وقد كنا نتحاشى الحديث بأمور السياسة أو الدين لأنها تؤدي بنا إلى عقوبات جمة.

الفصل الثالث

في أحد الأيام اجتمع بنا الملازم المسؤول عن فصيلتنا، وبدأ يحدثنا عن القيم الحقيقية للمجند، وأخبرنا أن أعلى قيمة ينالها العسكري هي الولاء المطلق لقائد الوطن وحب القائد وافتدائه بالروح والجسد؛ لأنه حامي البلاد وساهر على أمن الوطن والمواطنين، ثم راح يعرّج إلى الحركة التصحيحية التي قام بها القائد الخالد، وبيّن لنا أن هذه الحركة هي من أهم الإنجازات التي لم تعرفها البشرية منذ عصور وذلك؛ لأن منجزاتها لا تُعد ولا تُحصى، ثم راح يعدد تلك الإنجازات:

- كالكهرباء التي أنارت البيوت، وتعبيد الطرق وإنشاء المدارس وتوصيل الهواتف فقاطعه أحد الجنود ساخراً في قرارة نفسه:

- سيادة الملازم نحن لا يوجد لدينا هاتف في بيتنا، فاحمرت عينا الملازم وصاح بوجه العسكري:

- أيها التافه أتسخر مما أقول ومن إنجازات الحركة التصحيحية يا بن الكلب؟!!

فنادى الرقيب وأمر بتعذيبه وسجنه فأخذه الرقيب بينما راح الملازم يسرد لنا تلك الإنجازات وعظمة صانعها وابن بصانعها.

كانت تلك المعلومات قد مرت عليَّ أكثر من عشرين مرة، فقد سمعتها مرات كثيرة عندما كنت في المرحلة الابتدائية، ولازلت أذكر جدران المدرسة التي تلونت بتلك الإنجازات وعظمة تلك الحركة، والأسطوانة ذاتها كُررت على مسامعي أيام دراستي الإعدادية والثانوية حتى باتت الحركة التصحيحية تمر علينا في دراستنا أكثر من قاعدة الفاعل والمفعول به.، بل إنني أذكر أن الحركة التصحيحية درسناها في كتاب القومية وفي اللغة العربية حيث جاءنا موضوع في الصف التاسع

عن تلك الحركة ومنجزاتها.

فشعرت أن مسامعي قد أُرهقت لكثرة ما سمعت عن تلك الإنجازات.

استمر الـدرس حوالي ساعة ونصف وبعد ذلك نادى الملازم الرقيب وأمره أن يقودنا لتنظيف الكتيبة من الأوراق والأوساخ.

انتشر الجنود في أنحاء الكتيبة وبدؤوا بجمع القمامة المنتشرة فيها، وبعدما انتهينا أمرنا الرقيب بالانصراف إلى مهاجعنا.

التناقض والغرابة أمران يحدثان كثيرا في كل وقت وقد تحول بنا الملازم خلال دقائق من سرد ملحمة الحركة التصحيحية إلى جمع القمامة في الكتيبة وفي كلا الأمرين تعذيب للنفس على ما لا تطيقه.

وبعد حوالي ساعة تم تكليف أحد الجنود القدامى بالخروج معنا في قطع مسافة عشر كيلومترات ركضا وبالنسبة للركض

هو العمود الفقري للرياضة في الجيش؛ لكن الذين يعانون من هذه المسألة هم أصحاب الأوزان الثقيلة فلا يستطيعون الجري مسافة كبيرة لكن سوط المشرف يهوي على جلودهم فيواصلون الركض مرغمين.

كان لي صديق من حمص اسمه خالد يحمل الماجستير في الرياضيات، فجاء إلى المجند المسؤول عنا وقال له:

- هل من الممكن أن تعفيني من الركض؟ فأنا معي ماجستير ظناً منه أن ذلك له مكانة في الحياة العسكرية.

غضب المجند واحمرت عيناه ثم قال:

- ستركض حتى لو كان معك «بواسير» ظناً منه أن الماجستير هو مرض جسدي، فضحكنا بشدة، وبدأنا بالركض.

كان أحد الأغرار سمينا جداً وحركته بطيئة، فتخلف عنا مسافة بعيدة، ورأينا الرقيب قد التحق بنا، فقام بجلده ورفسه حتى تابع الركض، وبقي وراءه يجلده وهو يركض حتى وصلنا خط النهاية فتلون جلد ذلك المسكين بالحمرة

لكثرة الجلد الذي تعرض له.

كانت تلك الأيام عصيبة جدا علينا وكنا نتعرض لكافة أنواع الإهانات والتعذيب رغم أننا جميعا ضباط برتبة ملازم لكن الدورة ألغت مكانتنا، ولم يكد يمضي يوم إلا وتحدث فيه عشرات القصص والمواقف.

الفصل الرابع

انقضت أيام الدورة بصعوبة بالغة وتغيرت معالم جسدي ووجهي حيث نقص وزني حوالي خمسة عشر كيلو، أما وجهي فقد توشح بالسمرة والضعف.

في نهاية كل دورة من دورات الأغرار تتم منح إجازة للعساكر، ولا تتعدى ثلاثة أيام، لذلك تم منحنا إجازة مدتها ثلاثة أيام.

كانت تلك الإجازة أفضل منحة أتلقاها في حياتي كلها، لأنني شعرت أنني كنت مقيداً عن كل شيء في الحياة، حتى شعرت أنني كدت أنسى أهلي لكثرة الدروس والتدريبات والعقوبات التي نتلقاها.

كانت الساعات التي قضيتها في العودة إلى المنزل تمر ببطء شديد لشدة الشوق الذي انتابني لرؤية أهلي وأصدقائي من جديد بعد غياب دام ستة أشهر، وعند وصولي كانت فرحة أهلي بقدومي عارمة، فاختلطت دموع الفرح بابتسامات

مرتعشة حتى أضحت تلك اللحظات بين أفراد عائلتي كفيلة بنسيان مرارة الأيام التي مرت عليّ في دورة الأغرار ورغم قلة الإجـازة إلا أنها أعادت لي شيئاً من راحتي وسعادتي فقررت تقليص ساعات النوم كي أستفيد من كل لحظة تواجدت فيها عند أهلي فزارني كلُّ أصدقائي وقضينا لحظات اتسمت بالجمال الذي جلا عني بعض ملامح الأسى والشقاء، وقد كتمت عن أهلي كل القسوة والمعاناة التي واجهتني خلال فترة الدورة كي يشعروا بالراحة عندما ألتحق بعد انقضاء الإجازة.

مرت الأيام الثلاثة بسرعة البرق فالتحقت من جديد؛ لكن مخاوفي هذه المرة تبددت بعض الشيء؛ لأني ألفت طبيعة الجيش، كما أن الشهور القادمة ستكون أقل قسوة من أيام الدورة؛ لكن الشيء الوحيد الذي لم أستطع التخلص منه هو الحنين إلي أيام الجامعة فتلك الأيام لم تكن مجرد فترة دراسية عابرة، بل سطرت فيها ملحمة حفرت في قلبي عميقا وجمّلت أيامي وطبيعتي وكل ذلك مختزل بوجود أرق فتاة عرفتها في أيام عمري التي مضت، كان اسمها

ابتهال عرفتها في السنة الثانية من دراستي الجامعية، وكان لها خصوصية في كل شيء، حتى الذكريات استحوذت على الجزء الأكبر منها بصفاتها وتميزها الذي ما عرفته عند فتاة غيرها.

عدت أدراجي إلى كلية المشاة وذلك لاستلام فرزي حيث يتم فرزنا بعد انتهاء الدورة إلى مناطق جديدة، شعرت بسعادة كبيرة عندما عرفت أن فرزي سيكون إلى الفرقة العاشرة في مدينة قطنا في ريف دمشق كان سبب سعادتي هو قربي من دمشق تلك المدينة التي عشقتها بصدق، وهمس لي أحد أصدقائي أنني محظوظ لفرزي إلى الفرقة العاشرة لأنها معروفة بالرشاوى وسهولة الخدمة فيها.

كانت رتبتي العسكرية ملازماً مجنداً، وقد أكون ذا حظ وفير لأني ضابط ولست مجندا لكون الضابط يُعامل بشكل يختلف عن معاملة المجند.

وصلت إلى مكان خدمتي الجديد، وقد بدت الحياة هناك أقل قسوة من أيام الدورة؛ لأنّ الأيام العادية في

الجيش تختلف عن أيام الدورة، لكن التعليمات هي ذاتها لم تتغير، والتركيز الأكبر على منع الصلاة لكنني رغم ذلك لم أترك صلاة واحدة في الدورة وقد قضيتها سراً، ومرات عدة أصلي وأنا جالس حتى لا يشعر بي أحد، وبعد حوالي خمسة عشر يوماً من وجودي في الفرقة تم تكليفي بالإشراف على دورة جديدة للأغرار، فقررت أن أغير المعاملة المعتادة في دورة الأغرار التي تقوم على إذلال العسكري وافتعال العقوبات له، وقد عمدت إلى احترام كل المجندين ومعاملتهم بشكل جيد وبعد مرور فترة من الإشراف عليهم أصبحنا كعائلة واحدة وقد بات احترامهم لي مريحاً لوهج الضمير في ذاتي؛ فأصبحتُ مميزاً بين الضباط بحسن المعاملة.

كان أغلب المجندين يأتون إلى مكتبي ويجلسون معي، ويكشفون لي عن أسرارهم وظروفهم لأنهم يثقون بي بشكل كبير، كان من بين الضباط ملازم معروف بقسوته وسوء خلقه مع المجندين، فخرجت مرة من مكتبي ورأيته يعذب أحد الجنود التابعين لدورتي، وعندما سألته عن السبب قال لي:

- لا تتدخل بما لا يعينك واذهب لشأنك.

لم أستطع أن أتمالك نفسي، فأمرت المجند بالتوقف عن الزحف وارتداء ملابسه فوقف المجند، وهم بلباس ثيابه، فهجم عليه ليضربه، فوضعت قدمي أمامه فوقع على الأرض، ثم وثب من مكانه ليضربني، فأمسكته من يده وطرحته أرضاً، عندها رآنا العقيد وصرخ علينا بالتوقف فتركته، وطلبنا إلى مكتبه، وقد كان غاضباً مما حدث، ثم سألنا عن سبب العراك، فأخبرته بالأمر فقال:

- أمامكم خياران، إما أن تتصالحا أو تدخلا السجن،

رد عليه الملازم قائلا:

- من تظن نفسك حتى تدخلني السجن؟! أنا أدخلك أنت ومن خلّفك السجن.

وارتفع صوتهما، فطرده العقيد من مكتبه وقال لي:

- لا تهتم لشيء، سأربي هذا الكلب، وأعلمه كيف يتطاول على أسياده.

اعتذرت من العقيد، فأخبرني أن هذا الملازم يثير المشاكل بشكل دائم وأن هذه ليست المرة الأولى.

ذهبت إلى مكتبي فوجدت العسكري ينتظرني هناك، وعندما دخلت وقف، وأدى التحية ثم حضنني وبدأ يبكي، ربت على كتفه، وقمت بتهدئته، فأخبرني أن سبب بكاءه هو خوفه عليَّ؛ لأن هذا الملازم مدعوم ولا أحد يستطيع الوقوف بوجهه فقلت له:

- إن صاحب الحق لا يخشى شيئا؛ لأن الباطل لا قوة له وإن استمرت ستزول يوماً، لكنّ الأهم في كل هذا هو قوة الإرادة التي يملكها الإنسان فهي الكفيلة بثبات المواقف.

مر على الحادثة يومان، فجاء أمر بسجني عشرين يوماً، ورغم ذلك لم أهتم لذلك الأمر لأني دافعت عن موقف ما كنت لأرتاح لو بقيت دون التدخل فيه، أما بالنسبة للملازم فلم ينل أي عقوبة بل على العكس تماماً، فقد تم توجيه إنذار للعقيد بعدم الاصطدام معه.

كانت هذه الأمور بالنسبة لنا طبيعية؛ لأننا نعرف طبيعة الجيش، فهناك فئة لهم الكلمة الأولى والأخيرة حتى وإن كانوا بأصغر الرتب؛ لأنّ الوساطة لها دور كبيير، ومكانتها أكبر من أي رتبة أو اعتبار.

مرت أيام السجن بطيئة كليل أرهقه تثاقل الشتاء، وكنت أقضي أغلب الأيام بالنوم لكن سلسة الذكريات ظلت عابقة بطيف ابتهال، لم أستطع نسيانها وقد بات طيفها يسكن كل شعور ينتابني، وخاصة في الأوقات العصيبة التي أمر بها أذكر عندما كنت ألتقيها كل يوم في الكلية، ولا أفارقها أبدا، وأكثر ما يميزها عن غيرها من الطالبات هو اجتهادها، فقد كانت من الطلاب الأوائل في كل سنة من سنوات الجامعة، وقد أخبرتها بحبي لها بعد سنة من معرفتي بها، فأدركت حبها لي من نظراتها وابتسامتها واهتمامها الزائد بي لم تستطع إخفاء فرحتها عندما أخبرتها برأيي بها، كان حب ابتهال هو الأول في حياتي الذي يطرق باب قلبي، ويتربع فيه ويسكب في حناياه لذة الشوق ومتعة الألفة وبهجة اللقاء.

خرجت من السجن بعد عشرين يوماً قضيتها من عمري دون حسبان؛ لكنني كنت قنوعاً في قدري، وبقي قلبي كتلة من الحقد والكره على ذلك الملازم وعلى كل من ساعده ليقوي شوكة الظلم على الحق.

كنت أجلس في مكتبي أقرأ كتاباً لجبران خليل جبران عن الصراع الأزلي بين دفتي الحق والباطل من خلال قصص يسقطها على الواقع، فجاءني أحد المجندين ليخبرني أن العقيد يدعوني إلى مكتبه، فذهبت إليه، وحييته ثم دعاني للجلوس، وقد كانت ملامح الحزن والانكسار تغطي محياه فقال لي:

- والله يا محمد لقد كرهت نفسي، وأشعر أنني مجرد حشرة في هذا الجيش، فكيف لملازم تافه يفرض كلمته على عقيد ويشتمه دون رادع؟!!.

أنا في منزلي أعتبر مثلاً أعلى لزوجتي وأولادي، ويفخرون بي كوني ضابطاً، لكنهم لا يعرفون الحقيقة ولا يعرفون أن بعض الضباط - وأنا منهم - مجرد نكرة في هذا الجيش،

والسبب في ذلك كله، أنني لست ممن لديهم وساطات كبيرة ومعارف مع بعض المسؤولين..

نظرت إلى الباب وأغلقته بسرعة خشية أن يسمعنا أحد عندها سيكون هذا آخر يوم لنا في الحياة، فحاولت أن أهدئه وأرفع من معنوياته فقلت له:

- سيدي ليس بالضرورة أن تكون شخصيتك مهانة، ورتبتك لا معنى لها لمجرد وجود شخص أدنى منك عقلاً ومكانة استقوى بأصحاب القدرات على من هم أعلى منه رتبة وهذه هي مقاييس الدنيا، فالظلم حاضر في كل مكان وإلا لما عرفنا حلاوة الحق وأهميته، وأهم ما في المرء هو أن يكون كبيرا بأفعاله وخصاله،وأنت لك مكانتك الكبيرة عند أغلب الضباط والجنود.

أخرج سيجارة من علبة دخان كانت مرمية أمامه على الطاولة ثم أشعلها ونفث الدخان في الهواء ببطء شديد فابتسم ابتسامة ارتياح ثم قال:

- لعلك تدرك يا محمد مكانتك عندي واحترامي لك، وأنا

أشعر بارتياح كبير عندما أجلس معك، فلباقتك في الحديث، وثقافتك تريح من يسمعك، فشكراً لك يا بني على كل ما قلته، فقد بث كلامك الراحة في أرجاء نفسي المنكسرة.

توقف حديثنا فجأة على صوت إطلاق نار، فخرجنا مسرعين وكان مصدر الرصاصة أحد مخازن الأسلحة في الفرقة، وكانت المفاجأة هي عميلة انتحار، حيث قام أحد الجنود بإطلاق النار على نفسه، وقد وضع فوهة البندقية في فمه وأطلق الرصاصة فاخترقت فمه ونزعت مؤخرة رأسه بالكامل، أمعنت النظر في وجه القتيل، فلم أستطع أن أتمالك نفسي وصرخت بصوت متحشرج:

- إنه رامي العبد الله، ماذا حدث له؟! وكيف تجرأ على الانتحار؟!!

لم أستطع استيعاب ما حدث، فبكيت بحرقة شديدة، لأني أعرف هذا المجند جيدا، فقد كان بسيطا وخلوقاً، وأذكر أنني تحدثت مع والدته على الهاتف ذات يوم عندما كان يكلمها

وطلبتْ منه أن تلقي السلام عليَّ، وقد شكرتني كثيراً لحسن معاملتي لولدها ورجتني أن أهتم به، وأساعده.

شاعت قصة مقتل رامي في الفرقة، وأصبحت على لسان كل مجند، وكان سبب انتحاره هو أنه لم يبق له سوى فترة بسيطة على إنهاء خدمته العسكرية؛ ولكن تم اكتشاف وجود نقصٍ في مستودع الذخيرة المسؤول عنه رامي، وقد قرروا تغريمه بأكثر من نصف مليون ليرة، وسجنه إذا لم يبين سبب النقص ويعيده إلى المخزن خلال أيام، وقد كان من عائلة فقيرة جدا؛ لذلك لم يتحمل عقله هذه المصيبة التي حلت عليه وعلى أهله.

تم تكليفي مع عدد من الجنود لإيصال جثمان رامي لأهله، حاولت أن أرفض ذلك لكنني لم أستطع، وقد كان الأمر صعباً عليّ بشكل لا يحتمل، فكيف لي أن أنظر بوجه أمه؟!!، وهي التي رجتني كثيراً كي أهتم به، وقد قطعت عليها وعودا بذلك.

كان رامي من مدينة تلبيسه في ريف حمص تبعد عنا حوالي

٢٦٠ كيلو مترا.

وضعنا النعش في سيارة إسعاف وركبنا سيارتين ثم خرجنا من أمام مستشفى تشرين العسكري الساعة السابعة صباحاً.

كانت تلك أصعب لحظات عمري التي مررت بها،لم أستطع أن أتخيل الموقف كيف سيكون رغم أنَّ أهله قد وصلهم خبر وفاة ابنهم عن طريق برقية أرسلها قائد الفرقة.

استغرق وصولنا حوالي ثلاث ساعات، ووجدنا حشداً كبيراً أمام بيته من أقربائه وجيرانه وبعض من معارفهم، كان قلبي ينبض بسرعة لهول الموقف وكلُّ تركيزي منصب على رؤية أمه، وفجأة خرجت من بين الحضور امرأة في الخمسين من عمرها ثم صاحت بصوت يقطع نياط القلب:

- ويلاه يا ولدي لماذا تركت أمك ورحلت عنها؟!.

كيف هان عليك يا ولدي أن تفارق أمك؟!،..

من سأنتظر بعد فراقك يا فلذة كبدي، ومن سيخبرني أنه مشتاق لي كثيراً؟!.

آآآه يا ولدي لقد قتلتني ألف مرة برحيلك، فكيف لي أن أعيش بقية أيامي من دونك؟!

لم أستطع حبس دموعي، فانهالت بشدة تكسوها العبرات والنحيب، نزلتُ من السيارة فنظرت إليّ أم رامي وهي تقول:

- أنت تبكي أيضا يا ولدي؟!

- لابد أنك الملازم محمد الذي تحدث عنه رامي كثيراً، وأحبه بصدق واحترام، أومأت برأسي لتأكيد تساؤلها، فجاءت إليّ، وفتحت ذراعيها، وحضنتني بحرقة ونحيبها يخرق جدار قلبي، تذكرت أمي في تلك اللحظات وشعرت أنني بين أحضانها، فأدركتُ هول الموقف وصعوبته.

رجتني أم رامي أن أسمح لها برؤية ولدها، وقد كانت الأوامر تقتضي بدفنه مباشرة دون أن يراه أحد؛ لكنني لم أستطع أن أقف بوجه توسلاتها؛ لذلك سمحت لها برؤيته فحضنته بشدة وقبلته بحرقة ونحيبها لا ينقطع وهي تقول:

- انتظرني يا ولدي سألحق بك قريبا، فالله رحيم بعباده ولن

يبقي على شوقي لك معلقاً دون لقياك انتظرني يا روح أمك، فقبري سيكون بجانبك كي تنام بحضن أمك كما كنت تفعل في طفولتك.

شعرت أن الدنيا قاسية علينا نحن الآدميين، فما أبسطنا وما أقل حيلتنا تجاه المواقف التي تعصف بإرادتنا! فالموت قدر محتوم على كل مخلوق؛ لكننا عندما نعيشه نصاب بحالة صدمة، وكأنه يمر علينا أول مرة ولا غرابة من ذلك؛ لأننا نفقد أقرب المقربين لنا خلال دقائق معدودة، وقد عايشناه سنوات طوال، والعمر كله يختزل بلحظات لم تكن بالحسبان؛ لذلك فإن الموت هو الشيء الوحيد الذي يتساوى فيه الغني والفقير والقوي والضعيف إذ لا مكان للمال والسلطة هناك لكن النسيان هو الدواء الناجع لكل علة تعترينا نحن البشر.

عدنا إلى الفرقة وصورة رامي وأمه لا تفارقاني، كانت ساعات النوم قليلة وكنت أصبّر نفسي بسيجارة علني

أهرب مما أنا فيه رغم أنني لم أعرف طعما للتدخين في حياتي المدنية؛ لكنني في الجيش اعتدت أشياء كثيرة كنت أنكرها قبل دخولي الجيش كلعب الورق الذي أتقنته جيدا خلال خدمتي العسكرية والتدخين سواء بالنارجيلة أو السيجارة ولم تكن هذه حالي لوحدي بل حال أغلب من يدخل الجيش.

بعد عدة أيام فتح تحقيق في حادثة انتحار رامي وتمت إعادة جرد مستودع الأسلحة الذي كان مسؤولاً عنه رامي، فكانت المفاجأة عندما تبين أن النقص فقدان خمس بنادق أخذها أحد الضباط من المستودع ؛ ليتدرب على الرمي مع بعض أصدقائه؛ لأنه سيقوم برحلة صيد إلى لبنان، وقد أخذها الضابط دون علم رامي لأنه يملك مفتاحا آخر للمخزن لكن الضابط كان في إجازة ولم يتم سؤاله عندما تم تجريم رامي بالنقص الذي حصل.

كان ذلك الضابط برتبة عقيد، ولم يتجرأ أحد أن يوجه له

أي تنبيه ؛ لأنه كان يستند إلى شخصيات مهمة لها مكانتها في أروقة الدولة.

مرت الحادثة، وكأن شيئا لم يكن، ولم يجرؤ أحد بعد ذلك على الحديث عنها؛ بسبب ورود تعليمات بذلك.

الفصل الخامس

الجيش بالنسبة لنا هي حياة ضمن أخرى تختلف تماما عن واقعية الحياة العادية وطبيعتها إذ لا مكان للإنسانية هناك، وعليك أن تكون حذراً في كل حرف تنطقه أو تصرف تفعله لدرجة أنك تشعر أن هناك آلاف العيون التي ترقبك، والخشية الكبرى في كل ذلك هي سجن تدمر الذي يطلق عليه بعض العساكر جهنم الدنيا، فقد حدثني أحد الجنود عندما سُجن هناك مدة تسعة أشهر بسبب فراره من الجيش حيث وضعوه هناك في سرية تسمى «سرية التأديب» ومهمتها إعادة تأهيل السجين من جديد بطرق تعود للقرون الوسطى، وعندما سألته عن أبشع طريقة تعذيب تعرض لها في سجن تدمر قال:

طرق التعذيب هناك كثيرة جداً، وهم يتفنّنون بذلك؛ لكن أبشع ما تعرضت له، ولا يمكنني نسيانه ما حييت عندما

علقوني في الزنزانة مدة يومين.

استغربت من تلك الطريقة، فطلبت منه أن يشرحها لي بالتفصيل، فطلب مني أن أسمح له بتدخين سيجارة فأذنت له وبدأ يدخن باضطراب ثم قال:

كان في الزنزانة حلقات حديد مغروسة بالجدار بحبل، فربطوا يديَّ بحبل من الأمام بحلقتين، وربطوا قدميَّ بحبل من الخلف بحلقتين على الجدار المقابل، ثم شدوا الحبل ورفعوني عن الأرض، فأصبحت متأرجحاً؛ وكأنني منبطح في الهواء، وكنت عارياً تماما، فقاموا بجلدي على ظهري حتى أغمي عليّ، وعندما أفقت شعرت أن يديَّ وقدميَّ مخلوعتان، فبدأت بالصراخ بشكل جنوني من شدة الألم، فجاؤوا إليَّ وقاموا بجلدي من جديد، وبقيت على هذه الحالة يومين حتى تم سلخ جلد ظهري عندها أنزلوني، وبقيت ممداً على الأرض لا أستطيع الحراك فترة طويلة من الزمن، وكنت ألعق الطعام بلساني كما تفعل الكلاب والقطط عندها شعرت أن الموت هو أفضل شيء يمر على الإنسان في حياته.

تمنيت الموت مراراً، وبكيت بحرقة طالبا الخلاص علني أرتاح من آلام مزقت كل شعور استقر في جسدي.

وقد مات الكثير من السجناء في ذلك السجن أكثرهم تحت التعذيب ومنهم بسبب الأمراض المنتشرة هناك، وبعضهم مات جوعاً؛ لأنهم يمنعون عنا الطعام فترات طويلة، فالحياة هناك هي عبارة عن موت بطيء مصحوب بعذاب لا تتصوره العقول.

أخذ ذلك العسكري جرعة دخان من سيجارة أخرى كنت قد قدمتها له، فنفثها في الهواء ثم أردف قائلا:

تمنيت لو أنني مت قبل ولادتي أو أنني ولدت معتوها أو معاقاً لشدة ما عانيت داخل السجن ولازلت تلك المواقف لا تفارقني، فقد سكنت كل شعور بداخلي حتى أصبحت أتوجس خيفة من شرب الماء؛ لأن أحد السجانين قام برسم حنفية على الجدار، وطلب مني أن أشرب منها فأخبرته أنها رسمه فكيف سأشرب منها؟!!، فأمر بخلع ملابسي وجاء بأحد المساجين وقال لي إما أن تشرب من الحنفية أو أجعل

هذا السجين يعتدي عليك، فهجمت على الجدار وقمت بلعق الجدار عند رسمة الحنفية وكأنني أشرب منها فقال لي السجان:

- أحسنت الآن أريدك أن تستحم من الحنفية أريد أن أرى رأسك مبلولا بالماء، لم أستطع أن أعترض وخصوصا أن السجين الآخر لازال واقفا، فمثلت دور القيام بالاستحمام تحت الحنفية، فرفسني بمقدمة بوطه العسكري على ظهري فاصطدم رأسي بالجدار وسال الدم من رأسي فضحك السجان وقال:

- الآن أحسنت لأنك وضعت الصابون على رأسك - يقصد بالصابون الدم الذي خرج من راسي - لكن الصابون يحتاج إلى ماء.

بقيت جالسا دون حراك أجهل ما أفعله، فأمر السجين الآخر أن يبول على رأسي ولم يتردد السجين خوفا من العقاب.

شعرت بامتعاض شديد من تلك القصص التي يشيب لها الرضيع وينكرها العقل لكنها موجودة وواقعية، وتحصل باستمرار في غياهب السجون اللعينة التي استفردت فيها الرهبة والقسوة، وانعدمت فيها الحياة والإنسانية فأدركت حينها سبب المقولة الشهيرة «كل داخل للسجن في سورية مفقود وكل خارج منها مولود».

الفصل السادس

لم أكن قبل دخولي الجيش من محبي السهر لكنني أصبحت عاشقاً له إما للعب ورق الطرنيب أو للسهر مع بعض الجنود أو الضباط وفي ليلة ادلهم فيها الظلام، كنت أجلس في مكتبي موقدا " مدفأة المازوت " حيث كان الفصل شتاء وأحوال الطقس باردة جداً في هذا المكان حيث ينزل الثلج في أغلب الأوقات، وتصبح نسائم البرد تنخر في العظام؛ لذلك فالجنود يكرهون أيام الشتاء كثيرا لأن التعذيب أو حتى التدريب في تلك الأيام يكون قاسيا ومؤلماً، وهذه الأيام تشبه إلى حد كبير أيام السنة الماضية في برودتها وقسوتها وبهذا أكون قد تجاوزت السنة الأولى من خدمتي في الجيش.

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ليلاً، وكنت أشاهد برنامجا على التلفاز عن رجل هندي تزوج عشرين امرأة، وأنجب منهن ثمانية وخمسين مولوداً، فلاحت في مخيلتي

صورة ابتهال، وقد انقطعت أخبارها عني منذ سنتين كانت آخر مرة رأيتها فيها عند مدخل كلية الآداب بجامعة دمشق حيث جاءت لإخراج مصدقة التخرج وكانت صدفة ألهبت شعوري، بقيت معها مدة ثلاث ساعات نتصفح أيام الماضي، أخبرتني أن أمها مصرة على زواجها من ابن خالتها الذي يعمل طبيب أسنان لكنها رافضة له بشدة وفي نفس الوقت لا يمكنها تجاهل قرارات أمها لأن لها الكلمة الفصل في البيت.

كانت قسوة أمها ظاهرة منذ أن التقيتها أول مرة حيث أخبرت ابتهال برغبتي بزيارة أهلها، وكانت مترددة لكنها وافقت لشدة إصراري، وعندما ذهبت التقيت أمها فقالت لي:

- أنا أعلم أنك تحب ابتهال وقد أخبرتني أنها تحبك أيضاً؛ لكنني أعطيت وعداً لابن خالتها ولا يمكنني التراجع عنه؛ لذلك ابحث عن فتاة أخرى وانس ابتهال.

شعرت بنبضات قلبي تتسارع، وبزخات العرق قد تربعت فوق جبيني، فانتفضت عروقي حزناً وغضباً؛ لكنني لم أرد بحرف واحد، فخرجت تاركاً ورائي قلباً معفراً بالانكسار

وحزناً خيم على مواطن شعوري، وقد كانت تلك أكبر صدمة اعتراها قلبي في وجودي ولم أكن لأتخيل نفسي يوما بعيدا عن ابتهال لأنني أحببتها بصدق، ووجدت النساء قاطبة تُختزل بشخصيتها رقة وجمالا وخلقا وذكاء لكن ذلك كله تلاشى من ناظري واستوطن مخيلتي.

أيقضني من خيالي السابح في بحر الذكريات منبه الساعة المعلقة على جدار المكتب، وهو يشير إلى الواحدة ليلا، فقررت النوم لأريح جسدي المتثاقل من عناء اليوم؛ لكنني سمعت أصوات أقدام، وهي تتحرك بسرعة خارج المكتب.

شعرت بالذهول فالوقت متأخر ولم يكن في المعتاد أن يحدث شيء من هذا القبيل، فتسربت إلى نفسي بعض المخاوف مما يحدث، ونظرت من النافذة فلم أر شيئا حيث كان الظلام حالكاً، فحملت مسدسي وخرجت من الباب، فرأيت خمسة جنود يحملون أكياساً على ظهورهم، وعندما اقتربت منهم استوقفتهم، وكانوا جنودا تابعين للفرقة فأمرتهم بإحضار الأكياس إلى المكتب، وعندما فعلوا فتحت الأكياس

فوجدتها تحتوي على بعض من التفاح والبرتقال لكنها كمية كبيرة، وعندما سألتهم عن مصدر هذه الأشياء، لم يجيبوا، فهددتهم بالعقوبة والسجن فقال أحدهم:

- ليس لنا علاقة في هذا الأمر، النقيب علاء هو من أمرنا بذلك، وكنا نفعل ذلك كل يوم منذ عشرين يوما، فسألتهم عن السبب الذي جعلهم يوافقون على أمر كهذا، فأخبروني أنه وعدهم بإجازات لكل واحد منهم فأمرتهم بحمل الأكياس واللحاق بي ثم توجهت بهم إلى مكتب النقيب، فوجدته جالساً وكأنه ينتظرهم، وعندما رآني تغيرت ملامح وجهه وبدا عليه الغضب فقال لي:

- ماذا تريد؟!... ولماذا جئت مع العساكر إلى هنا؟!

- جئت لأعرف كيف تسمح لنفسك أن ترسل هؤلاء العساكر للسرقة؟! ألا تشعر بالخزي من نفسك تستخدم الجيش للسرقة من فلاح بسيط أفنى أيامه للحصول على لقمة عيشه؟

احمرت عيناه وتغيرت ملامح وجهه ثم قال:

- هذا أمر لا يعنيك، وإذا تدخلت به سأقطع لسانك.

قلت له: سنعرف لسان من سوف سيُقطع نتيجة أفعاله الشنيعة.

وما جعلني أتجرأ عليه كونه في موضع اتهام كبير يجب أن يحاسب عليه بشدة، خرجت من مكتبه وعقلي لا يكاد يصدق ما رأيته فقد كنت أتوقع كل شيء إلا هذا الأمر، وفي اليوم التالي أخبرت قائد الفرقة بتلك القصة فابتسم وقال:

ربما يكون قد اشتهى أكل الفواكه، فقام بذلك الأمر، فلماذا تسميها سرقة؟! فأخبرته أنه مستمر على هذه الحالة منذ عشرين يوما، فطلب مني الذهاب وسيستفسر عن الأمر بنفسه، فشعرت بالندم لإخباره لأنه لن يفعل شيئا وقد بدا ذلك من ردة فعله.

عند الظهيرة اتصل بي أحد الجنود من الباب الرئيسي، وأخبرني أن هناك فلاحاً يريد رؤية أحد الضباط فأمرت بإدخاله وكنت أعرف أنه صاحب الحقل جاء ليشتكي على الجنود الذين سرقوا مزرعته كان في الستين من العمر وقف أمامي مرتعشا من تثاقل السنين عليه فبدأ بالحديث:

- والله يا سيدي لا أعرف ماذا أقول - قاطعته،

وطلبت منه الجلوس، وأخبرته ألا يقول لي سيدي، ويعتبرني كابنه،فشعرت بالارتياح قد بدا على ملامحه ثم أردف قائلاً:

- ليس لديّ في هذه الدنيا يا ولدي مصدر رزق سوى المزرعة التي أعيش من خيرها أنا وعائلتي ومنذ حوالي عشرين يوماً وأنا ألاحظ أن المحصول يُسرق منه كل يوم، وفوق ذلك أفسدوه وقاموا بتكسير الأغصان، لو جاؤوا إليّ لأعطيتهم ما يريدون لكنهم يسرقون ويفسدون بنفس الوقت.

انحدرت دمعة من عينه وتاهت في أخاديد وجهه التي حفرتها السنون والشقاء فاقتربت منه وجلست بجنبه وأمسكت بيديه وربتُّ على كتفه وقلت له:

- عماه لا تبكي ولا تهتم ولن تكون هناك سرقة بعد اليوم وسوف أعاقب كل الجنود الذين تجرؤوا على سرقتك فكن مطمئناً، ارتسمت بسمة ارتياح على وجهه، فشكرني، ودعا لي بالتوفيق، ثم ذهب، لم أستطع أن أكون عاجزا أمام ذلك العجوز،وقد كانت دمعته دافعا قويا لأعده بما يريحه.

كنت أعرف أنني لا أستطيع أن أمنع النقيب من تكرار ذلك،

ربما أكون قادراً على منع الجنود، ولكن رغم ذلك قطعت وعدا للرجل بعدم التعرض لمزرعته وفي نفس اليوم جاء أمر بنقل النقيب إلى مكان أخر وكأن الأقدار انتصرت لعجزي وحق ذلك الرجل المسكين،

جمعت جميع الجنود، وحذرتهم من الذهاب إلى أي مزرعة بجانب الفرقة أو بعيدة عنها ومن يفعل ذلك، أقسمت على معاقبته وسجنه، فقطعوا لي وعودا بعدم تكرار ما حدث.

الفصل السابع

الأيام في الجيش تمر بصعوبة بالغة كسلحفاة أرهقها العجز والتعب؛ لذالك فهو يعتبر حياة جديدة غير معتادة من ذي قبل، والاستفادة منه تكون في معرفة أصدقاء جدد تصاحبها قسوة تتربع في قلب المرء وملامحه، إضافة إلى الشوق المفرط للمرأة فرؤية المرأة تعتبر بالنسبة للعسكري حدثا غريبا إذ أنه يقضي طوال وقته ضمن دائرة مغلقة من هدير آليات الجيش وقرقعة قصعات الطعام، ولا وجود لطيف أنثى في تلك الأماكن، وقد حضر كل الجنود تقريبا عندما جاءت دكتورة لتلقي عليهم محاضرة عن مخاطر الإصابة بمرض الإيدز.

تربع الجنود في الساحة العامة بلهفة غير معهودة بانتظار الدكتورة المحاضرة، وعندما جاءت، جلستْ على كرسي

تحت المظلة المنصوبة في المنصة العامة وجلس بجوارها بعض الضباط بما فيهم أنا.

عم الهدوء المكان بشكل غريب ولأول مرة منذ دخولي الجيش كانت مئات العيون منصبة على الدكتورة وهم ينظرون إلى حركات يديها وتناغم كلماتها وهي تتحدث، كما أن الموضوع الذي تتحدث عنه فيه بعض الإشارات المثيرة فكانت أغلب الأفواه مفتوحة لشدة الإصغاء.

مرت المحاضرة بسرعة دون ملل يذكر، ثم طلبت الدكتورة من الجنود طرح الأسئلة التي يرغبون بها فرفع أحد الجنود يده وطرح سؤلا:

- شو يعني الواقي؟

كان سؤالا في قمة الخبث بدا ذلك من ابتسامته فهو يعرف المعنى لكنه أراد سماع ردة فعلها، فأجابته جوابا مفصلا أثار أغلب الحضور بما فيهم الضباط ثم قام جندي آخر يسأل:

- كيف نعرف أن الواقي ليس مثقوبا؟

احمر وجه الدكتورة خجلا فقد كانت الأنثى الوحيدة بين مئات الذكور لكنها رغم ذلك أجابته جواباً ردت خجلها إليه حيث قالت:

- الأمر بسيط جدا إذا أردت أن تتأكد من عدم ثقب الواقي عليك أن تنفخ به، وستعرف إن كان مثقوبا أم لا.

ضحك الجميع بشدة بما فيهم الضباط، وكثرت الأسئلة وكلها تحمل إشارات ومعان تنم عن رغبات مكبوتة لدى الجميع حتى الضباط أنفسهم لم يمنعوا العساكر كعادتهم من الأسئلة الكثيرة، وأغلب الأحيان عندما يزورنا محاضر يمنع الضباط الجنود من كثرة الأسئلة، ويقتصر الأمر على سؤالين أو ثلاثة أما في هذه المرة فكان الضباط يستلذون بأسئلة الجنود رغم أن الدكتورة قد جاوزت الأربعين من العمر لكن أنوثتها ظاهرة بجسمها الرشيق، وبياض بشرتها وانسياب شعرها الأسود.

كان الجنود يفرغون شهواتهم بطرق غير طبيعية فالكثير منهم

لديه مقاطع غير أخلاقية في هواتفهم النقالة وقد اكتشفنا الكثير منها، ورغم ذلك لا يعاقب من يُكتشف أمره.

أما الضباط فبعضهم لديهم علاقات نسائية مشبوهة إلا فئة قليلة امتنعت عن ذلك إما لرادع أخلاقي أو لقناعته بزوجته ووفائه لها.

ولا أنكر أنني تعرضت لبعض المواقف المؤثرة؛ لكنني حاولت أن ألجم نفسي عن ذلك، فأذكر عندما كنت في دورة الأغرار طلب مني أحد الضباط، وهو برتبة عميد أن أذهب إلى بيته وأدرس ابنته التي كانت في أواخر المرحلة الثانوية، فوافقت على الفور لأنها فرصة للخلاص من التدريب وكثرة الدروس.

كنت أدرس اللغة الإنكليزية وقد كنت بارعا في تلك المادة، وصلت إلى بيت العميد وكان عبارة عن " فيلا " تتألف من طابقين مكسوة بالرخام الأبيض ومحاطة بأشجار متعددة الأصناف وفيها من الأثاث الثمين ما يدل على فحش الثراء وكثرة ذات اليد، وفي وسطها مسبح ترى القاع من شدة

صفاء الماء.

أخبرتهم أنني مدرس الإنكليزي، وقد أرسلني العميد لمساعدة ابنته في فهم تلك المادة أجلسني أحد الحراس على طاولة مستديرة في صالة كبيرة.

كان عدد الحراس ثلاثة اثنان يقومان بتنظيف الحديقة وتلبية طلبات العائلة، ويسمى الواحد منهم حاجباً، أما الثالث فيعمل سائقا لزوجة العميد لكن الغريب في ذلك أن هؤلاء الثلاثة كانوا جنودا تابعين للفرقة فأخذهم العميد كحجاب لخدمته حتى تنتهي خدمتهم في الجيش، ويأتي بغيرهم، وهذا الأمر ليس مستغرباً بالنسبة لضباط الجيش لأن غالبيتهم يقومون بذلك وهذا الأمر خاص بالضباط المتنفذين الذين لديهم معارف وصلات مع مسؤولين كبار في الدولة، أما مسألة الغنى فهي مسألة ليست بالطابع الغريب فكلها تكون عن طريق العمل في الجيش، وليست بجهود مدنية خارج إطار عمل الضباط فهذا العميد يقوم (بتفييش) خمسين جنديا وكل

خمسة وعشرين منهم يعطيهم إجازة شهر ثم يعودون إلى أماكنهم، ويذهب الخمسة والعشرون الآخرون، وذلك مقابل خمسة آلاف ليرة لكل مجند عن كل شهر وكلمة تفييش هي كلمة معروفة في الجيش وحتى لدى المدنيين لكثرة تداولها فعلا وقولا وتعني، ترك العسكري مكانه مدة طويلة في الجيش مقابل أجر مادي لأحد الضباط والأمر لا يقتصر على المال فقط بل هناك من يأخذ أشياء أخرى كعلب الدخان وزيت الزيتون والسمن البلدي وذلك حسب قدرة العسكري وعمله في بلدته، وكنت أعرف مجندا أعطى زوجة أحد الضباط «بطانية» مقابل إجازة مدتها أسبوع.

وقبل أن أنهي كأس العصير التي قدمها لي الحاجب جاءت ابنة العميد وهي فتاة في مقتبل العمر تتميز بجمال واضح ترتدي بيجامة رياضية ضيقة جدا تكتنز معالم جسدها بشكل واضح، فكانت رؤيتها بالنسبة لي مؤثرة، وخاصة أنني لم أر طيف امرأة منذ مدة.

جلست الفتاة أمامي ثم بدأتُ بشرح ما أشارت إليه، مرت ساعتان تقريبا لكنها بالنسبة لي كدقائق معدودة؛ لأنني كنت تائهاً بين رائحة عطرها، ونظراتها الحادة وجسدها المثير كان استيعابها ضعيفا جدا، وكنت أضطر لإعادة الشرح أربع مرات أحيانا لأنها لم تكن تعرف شيئا، فحاولت أن أرفع من معنوياتها، وأخبرتني أنها لم تكن ترغب بدخول الفرع العلمي لأنها لا تفقه فيه شيئا لكن والدها أصر على دخولها هذا الفرع؛ لأنه يريدها أن تصبح دكتورة في المستقبل أصابتني الدهشة من رغبة أبيها فكيف ستصبح دكتورة وهي لا تعرف قراءة أبسط الكلمات الإنكليزية، ولم أكن لأتوقع أنها ستنجح، ولو واصلت الليل بالنهار وهي تدرس لأن قدراتها العقلية بسيطة جدا ولا تؤهلها لذلك، أنهيت درسي فشكرتني الفتاة وذهبت.

سألني العميد عن مستوى ابنته فأخبرته أنها تحتاج للكثير من الدروس لأنّ مستواها متدني فطلب مني

الذهاب إليهم كل أسبوع مرة كان ذلك قبل الامتحانات بفترة قصيرة، وبعد ذلك بمدة علمت أن ابنة العميد قد نجحت لكن المفاجأة الكبرى أنها حصلت على درجات تدخلها فرع الطب، ولم أكن لأستغرب ذلك لأن هذا العميد لديه معارف كثر في شتى أنحاء الدولة، ولا يصعب عليه شيء بسيط كهذا.

الفصل الثامن

أسعفني الحنين إلى تلك الأيام التي كنت فيها طالباً، وقد درست في جامعة تشرين في مدينة اللاذقية، وأمضيت سنتي الجامعية الأولى هناك؛ لكنني قدمت طلب نقل إلى جامعة دمشق فتمت الموافقة عليه، وأكملت دراستي في دمشق لكن السنة الأولى التي قضيتها في اللاذقية جعلتني أعرف أشياء كنت أجهلها طوال عمري، وكأن هذه المدينة تعيش في عالم آخر غير عالمنا حيث كنت أرى رجالا غرباء الشكل والطبع في كل مكان سواء في الجامعة أو في السوق أو في الطرقات، وكانت هيئة الواحد منهم غريبة جدا تتميز بكثرة الوشوم على اليدين أو الرقبة والحلق وأغلبهم ذو لحى كثة وشعر قصير وأجسام ضخمة جدا تتدلى السناسل الذهبية من رقابهم، وأول مرة رأيت فيها هؤلاء انتابني الفزع الشديد فسألت صاحب البيت الذي كنا نستأجر عنده عن هؤلاء فقال لي:

- إياك إن تصطدم بهؤلاء وإذا كنت تسير بطريق ما ورأيتهم فابتعد عنهم، ولا تحاول النظر إليهم ازدادت مخاوفي من كلام الرجل، فطلبت منه أن يوضح لي قصة هؤلاء فبدا عليه الخوف هو أيضا لكن إصراري على المعرفة جعله يتحدث فأخبرني أن هؤلاء يسمون " الشبيحة " ولا يستطيع مخلوق في هذا البلد أن يقف بوجههم لأنهم رجال يعملون لدى بعض الذين لديهم صلة بمسؤولي الدولة ولدى كثير من أفراد عائلة رئيس الدولة وأقربائه، ولديهم سلطة مطلقة في كل شيء، فهم يأخذون ما يشاؤون ويقتلون من يريدون دون أن يتجرأ أحد على الوقوف بوجههم حتى ضباط الشرطة، والأمن يخشونهم ويتحاشونهم، وهؤلاء يعملون في كل شيء ممنوع فهم يتاجرون بالمخدرات وتهريب الدخان وكل شيء يرغبون به.

شعرت بالخوف يجتاحني، وخاصة أنهم يأتون إلى الجامعة كل يوم، وكنت أستغرب وجودهم هناك حتى قال لي أمجد وهو أحد أصدقائي في الجامعة:

- إنهم يأتون من أجل الفتيات فأي فتاة جميلة يرغبون بها

يطلبون منها الذهاب معهم راضية أو مرغمة.

كان هؤلاء الشبيحة يملكون سيارات فارهة وأموالا طائلة؛ لأنهم يتاجرون بأي شيء يجلب المال لأسيادهم؛ فلا يكاد يمر يوم إلا وتراهم في أغلب الأماكن.

كانت تلك السنة من أصعب السنين التي عشتها، فالخوف والحـذر لم يفارقاني لحظة واحـدة والمـوت بأيدي هؤلاء الشبيحة هو أبسط أمر يمكن أن يحدث، وهذا ما جعلني أتابع دراستي في دمشق تلك المدينة التي تبث السكينة في أرجاء النفس البشرية، فتموج عاطفة المرء بالحنان إذا ما غادرها، فالسحر الذي يتغلغل فيها جَبَل طبع كل ساكن فيها على الرقة والمودة وحسن الطبع.

كانت هذه الذكريات سبيلي الوحيد للتخلص من ملل يعتريني في معظم الأوقات، ورغم أنني قطعت شوطا طويلاً من خدمتي العسكرية إلا أن الفرحة لا تتم إلا عند استلام الهوية المدنية ورغم امتعاضي من كثير من الأشياء التي تحدث في الجيش، ورغم القسوة التي نواجهها إلا أنني لم أغيّر في

معاملتي للجنود الذين أشرف عليهم في كل دورة، فقد كانت معاملتي لهم مبنية على الأخوّة والصداقة؛ لذلك فقد كسبت مودتهم واحترامهم، وعرفت عدداً منهم من كافة أنحاء البلد، وهذا بالنسبة لي يعتبر أمراً مريحاً.

كان الجنود ينفرون من ضابط الأمن الذي كان برتبة عقيد بسبب قسوته، وسوء معاملته لهم وقد نُقل إلينا منذ خمسة أيام، وكان سلوكه يعكس سوء شخصيته، إذ أنه لا ينطق كلمة إلا ويصحبها بكلمات الكفر بألفاظ مبنية على السباب والتحقير، ومسألة التلفظ بالكفر تجاه الله هي مسالة شائعة جدا في الجيش وتكاد تكون شبه عادية لأغلب الجنود لكثرة استخدامها أما الحديث عن الرئيس دون تبجيل أو تقدير فيعرض صاحبه للمهالك.

كان العقيد الجديد كغيره من الضباط المتنفذين، ومن أصحاب المعارف الكثيرة من قبل مسؤولي الدولة، ويكاد يكون هذا الامر منهجا متبعا في الجيش فأغلب الضباط هم من الساحل.

في صبيحة أحد الأيام بينما كنت أقوم بإعطاء درس للجنود

عن الحرب النفسية في المعارك جاءني أحد الجنود ليخبرني أن ضابط الأمن يطلبني إلى مكتبه، فذهبت إليه فألقيت عليه التحية وكان يجلس خلف مكتبه وقد وضع قدميه فوق الطاولة، وهو يمسك بهاتفه النقال ويتحدث بصوت يوحي أنه يكلم امرأة، بقيت واقفاً حوالي خمس دقائق وهو يغازل من يحدثها بألفاظ تخدش الحياء ولا يجرؤ على التلفظ بها حتى صبي مراهق.

أقفل الخط ثم أخذ شفطة من كأس المتة الموضوعة على الطاولة ثم نظر إلي وقال:

- ما اسمك؟

- الملازم محمد سيدي.

- إذاً أنت من يصلي بالسر.

فاجأتني معرفته بقصة صلاتي بهذه السرعة فقلت له:

- لا لم أصلِّ لا بالسر ولا بالعلن

أنزل قدميه من على الطاولة وضربها بقوة بيده ثم أردف قائلا:

- أتكذب أيضاً أيها الحقير التافه؟!!

- لا أبداً لا أكذب ولا أعرف الكذب.

أخرج هاتفا آخر غير الذي كان يتكلم به من درجه وفتحه ثم أراني مقطعاً مصوراً لي وانأ أصلي فقال:

- والآن ما رأيك أيها الحيوان؟! هل هذا أنت أم لا؟!!

- أنا سيدي.

- لماذا تكذب إذاً؟!

- بقيت صامتاً دون أن أرد، ثم بدأ يشتمني ويتلفظ بألفاظ كفر، وخرج من وراء مكتبه، ورفع يده ليضربني فأمسكت يده وصحت بوجهه:

- مهما كنت ومهما علا شأنك فلن أسمح لك بضربي.

- خرجت من المكتب، وتوجهت لقائد الفرقة، وقد كان برتبة عميد وهو رجل لا يحب الظلم، ويعمل بصدق فشرحت له الموضوع وقال لي:

- أنت تعلم أن الصلاة في الجيش ممنوعة، والمشكلة مع هذا

الشخص لا تحل بسهولة لأنه شخص معقد، اذهب لعملك وسأبذل جهدي لحل هذه المشكلة.

الأشخاص الطيبون يظهرون مرات كثيرة في أحلك الظروف وقد يتواجدون في مستنقعات الفساد من دون رغبة، لذلك حاول قائد الفرقة أن يحل القضية إلا أن ضابط الأمن لم يرض إلا بسجني عشرين يوماً، وهي المرة الثانية التي أسجن فيها في الجيش

دخلت السجن لذنب أعتبره شرفاً لي، وشعرت براحة كبيرة لأنني لم أخش أي تهديد أو عقوبة تجاه صلاتي لكن الأكثر غرابة من كل هذا هو أن ضابط الأمن سجنني في الفرقة، وهذا أمر ممنوع في الجيش، فالضباط لهم سجن خاص خارج ثكنات الجيش لكن هذا الضابط وضع كل القوانين خلف ضهره وتصرف كما يريد.

وجدت أمامي في السجن عدداً من العساكر كان الهم والحزن يسكنهم بشكل رهيب لكنني لم أكن راغباً بالحديث معهم لأنهم ارتكبوا أشياء سلبية، وقد عرفت ذلك عند دخولهم

السجن كان أحدهم من محافظة إدلب ويدعى مروان كان سبب سجنه هروبه من الجيش مدة يومين؛ لذلك اكتفوا بسجنه عشرين يوماً في الفرقة، ولم يحال إلى تدمر نظرا لقلة الأيام التي تغيب فيها.

كان مروان كثير البكاء، فكنت أظنه قد تأثر بسبب دخوله السجن ولم أستطع بعد ذلك أن أبقى متجاهلا له فقلت له:

- هدئ من حزنك، فأنت رجل يا مروان، ولا يليق بك البكاء بسبب سجنك لبضعة أيام هناك آلاف الناس ممن دخلوا السجن مدة أطول، وعقوبة أعظم، وضعك بسيط وستمضي الأيام بسرعة.

كان يسند ظهره إلى الجدار، وقد احتضن ركبتيه ودس رأسه بين فخذيه، فرفع رأسه ونظر إلي نظرة يملؤها الحزن والألم فقال:

- أنا يا سيدي لا أبكي بسبب دخولي السجن ولن أبكي لو بقيت عشرين عاما مسجوناً ما يبكيني هو أمر أخر لا علاقة له بالسجن.

انتابني فضول شديد لمعرفة سبب بكائه فطلبت منه أن يخبرني ما بقلبه، عدّل من جلسته ثم أردف قائلا:

- كانت أمي مريضة جداً وقد أخبرني أخي أنها ترغب برؤيتي وعليَّ أن أطلب إجازة وأذهب لرؤيتها؛ لكن العقيد لم يوافق، فرجوته أن يسمح لي بالذهاب ولو لمدة بسيطة؛ لكنه أصر على رفضه بحجة أننا مقبلون على مشروع، وقد منعت الإجازات في ذلك الوقت؛ لذلك لم أجد وسيلة أرى فيها أمي سوى الهرب، ففعلت ذلك، وذهبت وعند وصولي وجدت أمي في آخر لحظاتها، وهي على فراش الموت لم تكن تستطيع التكلم؛ لكنها ابتسمت وانهمرت الدموع من عينيها عندما رأتني، وآخر مرة رأيتها فيها منذ أربعة أشهر، ولم تكن تعاني من شيء؛ لكن المرض داهمها بعد ذلك، ولم يمضِ اليوم الأول على وصولي إلا وقد فارقت الحياة، فأضحى فراقها بالنسبة لي أكبر صدمة عشتها في حياتي، لأن حبها بقلبي يتعدى حدود الوصف والتقدير، بعد ذلك حضرت إجراءات الدفن وعدت إلى الفرقة فعاقبوني بالسجن كما ترى.

ربت على كتفه وأخبرته أن الموت سبيل كل من يمشي على الأرض، وعلينا أن نرضى ونقنع بقدر الله وكثرة البكاء أو قلته لا يعيد الأموات.

بدت على وجهه ملامح الارتياح، وأكثر ما بات يثير غضبي هو انعدام الإنسانية في كثير من المواقف، فكيف لشخص أن يعاقب بالسجن لأنه ذهب لرؤية أمه الممددة على فراش الموت، وما كان سيغير في جيشنا هذا لو أن هذا الفتى أعطي إجازة يروي فيها ظمأ قلبه برؤية والدته؟!.

القسوة هي العنوان الأكبر لما نحن فيه، فمهما كانت المواقف إنسانية تبقى غارقة في غياهب النسيان أمام تجبر مصطنع وزيف باهت يبنى على ادعاءات واهية لا أساس لها في الوجود ولكن رغم ذلك كله يبقى الإنسان والحياة مزيجين يعلّم كل منهما الآخر وكلما طاف بنو الإنسان في نواحي الحياة وابتعدوا عما يألفونه وجدوا غرابة يستهجنونها، وبعد ذلك كله نألف كل غريب لأن طبع الإنسان مجبول على العادة

دفعني الفضول لمعرفة أسباب سجن بقية الجنود، فسألت أحدهم وكان يسمى «إبراهيم» وهو من ريف حلب أسمر البشرة قوي البنية، يتربع على ساعده الأيمن وشم عبارته «أبو الليل» وعندما سألته عن سبب سجنه أمعن النظر في السقف ثم نفخ زفيره ببطء شديد ثم قال:

- سبب سجني هو ابن الحرام ضابط الأمن الجديد رآني أمشي في الساحة العامة، فطلبني إلى مكتبه وسألني إن كنت أتقن صنع الشاي والقهوة، فأخبرته أنني أعرف ذلك، فطلب مني أن أصبح حاجبا له في مكتبه أصنع له الشاي والقهوة والمتة وأنظف مكتبه كل يوم، فرفضت ذلك، فأودعني السجن؛ لأنني لم أعتد خدمة أحد ولو كان مالكا الدنيا لأن تربيتي وطبعي لا يسمحان لي بفعل ذلك كما أنني جئت لأخدم هذا الوطن لا لأخدم الأفراد.

شعرت بعظمة هذا الفتى وشدة احترامه لذاته فأوضحت له أن موقفه هذا يدل على رجولته وشجاعته وأن السجن والعقوبات لا تساويان شيئا أمام كرامة الإنسان.

قاطع حديثنا خلدون وهو أحد السجناء الآخرين، وقد كان مسؤولاً عن محطة المحروقات في الفرقة قائلا:

ألا تريدون أن تسمعوا قصتي، وكان الوقت قد تأخر وبدأ النعاس يتسلل إلى عيني، فطلبت منه أن يؤجل حديثه إلى الغد، ورغم رائحة الزنزانة النتنة وشدة ظلامها وضيقها إلا أنني غفوت بسرعة غير معهودة، وقبل طلوع الشمس استيقظت على صوت قرقعة مفتاح باب الزنزانة، فكانوا ثلاثة جنود طلبوا من خلدون الخروج إليهم، فخرج خلدون والخوف يعتلي محياه، ثم أعادوه بعد حوالي ساعتين تقريباً، وقد شُوه جسده من كثرة التعذيب فارتمى بيننا، فمددناه على الأرض، وكانت الدماء قد غطت أنحاء جسده، وتقرحت عيناه من شدة اللكم والضرب؛ لكنه بدا متماسكا بعض الشيء فبدا يتمتم بكلمات مفهومة:

- يريدون أن يلصقوا التهمة بي أولاد الكلب، أقسم إن لم يخرجوني سأتكلم عن كل شيء وسأكشف كل شيء، حاولت

تهدئته، وطلبت منه أن يرتاح، وبعدما استقرت حالته سألته عن قصته فقال:

- لقد كنت مسؤولا عن محطة المحروقات في الفرقة، وكان ضابط أمن الفرقة والمقدم بسام يأخذان كميات كبيرة من البنزين والمازوت، ويهربانها خارج الفرقة؛ لبيعها ثم يقومون بتزوير الفواتير وأخبروني أن الأمور تجري بشكل سليم، ولن يكتشف الأمر وقاموا بإعطائي إجازات كثيرة وإعفائي من دروس الرياضة والحرس مقابل ذلك، ولم أستطع منعهم خشية أن يلصقوا التهمة بي، ومنذ يومين جاءت لجنة الرقابة والتفتيش، وقاموا بعمل جرد لكميات المحروقات التي خرجت من المحطة، فاكتشفوا النقص وتزوير الفواتير، فأنكر ضابط الأمن والمقدم معرفتهم بأي شيء والعسكري الآخر الذي يناوب في غيابي كان في إجازة؛ لذلك ألصقت التهمة بي فسجنوني في الفرقة حتى يكتمل التحقيق وتكتشف الحقيقة.

عرفت أنه قد وضع نفسه في ورطة لا يمكنه الخلاص منها بأي شكل لأنه مدان على جميع الحالات، فإذا تم اكتشاف الضباط فسيعتبر شريكا معهم وإذا لم يكتشف أمرهم، فستلصق التهمة به وحده.

كان طريق النجاة من هذه المصيبة مفقوداً تماما لأنها جريمة سرقة أثبتت بالأدلة القاطعة ومثل هذه الحادثة ستقوده إلى المهالك؛لأنه سيقبع في سجن تدمر شهورا طويلة وربما سنين.

في اليوم التالي جاء عدد من الجنود وأخذوا خلدون، وأضحى الشعور بالعجز وخيبة الأمل أشبه باحتقار النفس، وأصعب ما يكون للمرء رؤية شخص مظلوم يساق للعقاب دون القدرة على مساعدته وكف الظلم عنه.

كنت أكره الظلم بشدة وأحاربه بكل ما أستطيع؛ لكنني كنت أشعر أحيانا بالعجز عند دخولي الجيش لأن الوقوف لحظة واحدة أمام ظالم ذي سلطة يعني دخول السجن؛ وسياسة التشبيح تقمع كل بادرة خير يقوم بها الإنسان

لذلك كنت أكيل لهم اللعنات؛ولكن في سري وبيني وبين نفسي، علني أنفث شيئا مما يسكنني من غضب ومقت لمثل هؤلاء.

كنت أدرك أن خلدون لا يمكن أن يعود إلى السجن وأيقنت أنهم سيأخذونه إلى سجن تدمر حيث الموت البطيء ومناجاة الهلاك.

مرت العشرون يوماً، وقد فقدت من وزني الكثير؛ لأنني لم أكن أرغب بشيء حتى حاجتي للطعام بسبب انعدام شهيتي.

كدت أنسى خلدون وقصته؛ لكنني تفاجأت برؤيته في المحطة، فسألته عما حدث فأخبرني أنه طلب رؤية ضابط أمن الفرقة، فبين له أنه سيخبر لجنة التحقيق عن كل شيء إذا لم يساعده، فقام ضابط أمن الفرقة وتواصل مع رئيس اللجنة وأعطاه مبلغا كبيراً مقابل أن ينهي التحقيق بعدم اكتشاف أي تجاوزات أو سرقات في المحطة فتم الأمر، وانتهت القضية. وأبدى خلدون رغبته بترك المحطة لكن ضابط الأمن أصر

على بقائه.

كان ضابط الأمن يعشق المال كثيراً حيث يملك " الندوة " في الفرقة، وهي عبارة عن بقالة لكنها كبيرة جداً تحتوي على مشروبات غازية وبعض المعلبات كالسردين والمرتديلا والمربى، وأدوات الغسيل وأدوات الحلاقة وكثير من الأمور التي يحتاجها المجند لذلك يعمد مرات كثيرة إلى تقليل الطعام للعساكر ليضطروا للشراء من الندوة، فيتهافت العساكر إليها بشكل كبير، وقد يصل مصروف العسكري إلى أربعة آلاف ليرة في الشهر الواحد.

كنت أعمد في كثير من الأحيان إلى جلب بعض الأغراض التي أحتاجها عند الإجازة وخاصة شفرات الحلاقة وملمع الأحذية، وقد عرفت سبب تركيز أخي الكبير على ضرورة اقتناء هذه الأشياء، فحلاقة اللحية كل يوم وتلميع البوط العسكري من أهم الأمور في الجيش وكل الضباط يركزون على هذه الأشياء حتى بت

واحداً ممن يهتمون بتلك الأمور رغم أنها أشياء تافهة، ليس لها أثر كبير في الجيش، ويقوم بعض الضباط بمسح وجوه الجنود بأيديهم ليتحسسوا الشعر، وتكون العقوبة منتظرة كل جندي تكتشف أثار الشعر بوجهه وضابط الأمن هذا له مقولته الشهيرة التي حفظها الجنود وعرفها جميعهم " احلق بوطك ولمع ذقنك "

ولم تكن سلطة ضابط أمن الفرقة مقتصرة على الندوة فحسب، بل يده طائلة إلى كل شيء يمكن الاستفادة منه حيث توجد ضمن الفرقة مساحة أرض كبيرة يقوم بزراعتها عن طريق بعض الجنود، ويبيع محصولها في نهاية الموسم، أما المطبخ فيدر عليه أموالاً طائلة حيث يختزل كميات كبيرة من مؤونة المطبخ المعدة للعساكر، ولا يبقى لهم إلا الشيء القليل الذي لا يسد جوعهم.

جمع المال بالنسبة للضباط هو أمر بغاية البساطة لأن الموارد في الجيش كبيرة جدا أبسطها «تفييش» العساكر مقابل المال.

أما الذين يعانون الأمرَّين فهم الجنود، فلا حول لهم ولا قوة

سوى تنفيذ الأوامر، ورغم أن الميزانية المخصصة للجيش كبيرة جداً من طعام وشراب ولباس إلا أنَّ الفساد المستشري جعل وضع العساكر مزريا جدا، حتى أنني أذكر ذات يوم عندما كنت بدورة الأغرار أننا خرجنا في مشروع مدته أسبوع للرمي، فألمَّ بنا الجوع إلى درجة الهلاك، فوجدت بعضاً من الخبز اليابس تجثو عليه بعض جراء الكلاب التي ولدت حديثا فأبعدت الجراء وقمنا بأكل بقايا الخبز، لأن الجوع عندما يحل بالمرء يغلق عقله عن كل تفكير ويقطع سبل الازدراء عن كل شيء، وكان من حسن حظنا في اليوم التالي من المشروع أننا وجدنا نباتاً يسمى " خُبَّاز " وهو نبات يصلح للأكل بعد الطهو لكننا أكلنا الكثير منه دون طهو مما جعل الكثير منا يعاني من آلامٍ في بطنه طوال الليل.

وكثيرا ما تذكرت المساعد محمود صاحب الكرش الكبير والذي يقوم بجمع الخبز اليابس كل يوم في أكياس، ثم يقوم بشحنه وبيعه، وذلك بالتعاون مع بعض الرقباء والمساعدين الآخرين، وعلمت مرة أنه يخفي الكثير من ربطات الخبز عن

الجنود ويتركها حتى تصبح يابسة ثم يجمعها مع بقايا الخبز التي يعثر عليها، وكنت قد حذرته من تكرار ذلك فأقلع عن فعلته مدة لكنه عاد إليها مرة أخرى.

بدا لي الجيش وكأنه كبش كبير، والكل يسارع إلى نهشه وأخذ ما يريد دون رادع أو وخزة ضمير تعود بهؤلاء إلى جادة الإنسانية.

الفصل التاسع

لم يبق على نهاية خدمتي سوى ثلاثة أشهر؛ لكنها كانت بالنسبة لي كسنوات طويلة، وقد كنت أعمد إلى حسابها بالساعات، فكانت الثلاثة أشهر بمعدل ٢١٨٤ ساعة، ولم أكن أركز على ما تبقى بل أركز على الساعات التي تمضي حتى يخالجني الشعور بمضي الوقت، ولم تكن هذه حالي لوحدي بل حال كل من عُفِّرت قدماه بتراب الجيش، فحساب الساعات وأحيانا الدقائق هو المنهج المتبع لكل جندي يخدم في الجيش.

كانت هذه الأيام شديدة الصعوبة بالنسبة لي، رغم أنني بتُّ في المراحل الأخيرة لإنهاء خدمتي؛ لكنني فهمت من خلال كثرة الدروس التي نتلقاها، ونقوم بإعطائها للمجندين أنَّ هناك حدثاً ما في البلد حيث تغيرت معاملة الضباط للجنود

بشكل مفاجئ، وأصبح الجندي ذا قيمة واحترام من خلال تلك المعاملة، وكانت كل الدروس تقريباً تبين أن هناك بعض المخربين الذين يريدون أن ينشروا الخراب في الوطن بأدوات خارجية تسعى لتدمير سورية فشعرت أن القيادة تسعى لتهيئة نفسية جديدة للجنود تقوم على حبهم لها والتمسك بها ومع ذلك كانت هناك إجراءات مشددة على الجنود حيث تم منع اقتناء الهواتف النقالة في الجيش وتشكيل دوريات تفتيش مكثفة وضرورة مشاهدة قنوات التلفزة التي تتبع للوطن وعدم تصديق بعض قنوات الإعلام التي تعمل على بث الفتنة بين أبناء الوطن، بل وصل الأمر إلى معاقبة كل من يشاهد غير قنوات التلفزيون الرسمي، كما عملوا على تبجيل رئيس الدولة واعتباره الزعيم الوحيد الذي يمكنه حماية البلد، وحتى بقية أقطار الوطن العربي ولا يكاد يمر يوم إلا وهذه الاسطوانة تخرق مسامع الجنود جميعهم.

أضحى هذا الأسلوب والطريقة الممنهجة سبيلا لجعل

عدد من الجنود في حالة تخدير شعوري متأثراً بالوطنية ذات العنوان العريض لحب الوطن وقائده.

كان الفضول والشك فيما أسمع وما يحدث بالنسبة لي دافعَين لاستجلاب المعرفة من مصدر أكثر صدقا لأنني بتُّ أعرف هذا الأسلوب جيدا، فهم لا يسيرون في طريق ما إلا وتكون هناك خبايا أخرى غير ما يدّعون وقد زاد من شكي هذا رؤية خبر على قناة بعيدة عن أبواق الموالين مفاده " مقتل تسعة مواطنين على أيدي قوات الأمن في درعا "

عند ذلك أدركت حقيقة تغيير المعاملة تجاه الجنود، وما حدث في بعض البلدان العربية أوضح ما نحن فيه لكنني لم أستطع أن أظهر ذلك، فبقيت مدعيا تصديق الروايات التي تأتي من القيادات

مرت الأيام والأحداث تأخذ منحنى آخر، والترويج عن وجود فتنة على سورية يتعاظم كل يوم.

وخلال فترة بسيطة انتشرت الأحداث في أغلب مناطق سورية بشكل سريع مما دفع القيادات إلى إشراك الجيش " للقضاء على المخربين في البلد "

كان لي صديق برتبة ملازم في أمن الدولة من دير الزور، كنت قد عرفته أيام الدراسة في دمشق، حيث كنا نسكن سوية طوال فترة دراستنا فباتت العلاقة بيننا أكثر من الأخوّة

وقد تم تعيينه في سجن النساء في مدينة عدرا قرب دمشق، فقررت زيارته وبعد إلحاح شديد على العميد جمال قائد الفرقة سمح لي بمغادرة مدتها أربع وعشرون ساعة.

توجهت عند المساء إلى عدرا، ولما وصلت هناك وجدت موسى في انتظاري؛ لأنني كنت قد أخبرته أنني قادم إليه.

جلست معه في مكتبه حوالي ساعتين نستذكر أياماً مرت كالحلم في حياتنا الجامعية، فأخبرني أنّ اليوم مناوبته الليلية، ولن يغادر السجن، لذلك طلب مني البقاء معه حتى الغد فوافقت.

كانت الساعة قد أشارات إلى الحادية عشرة ليلاً، فرحتُ أسأله عما يحدث في البلد، فقام من مكتبه وأغلق الباب ثم بدأ يهمس لي:

- كما ترى بعينك فهناك الكثير من المشاكل والقتل الذي يحدث كل يوم.

فقلت له بصوت أكثر حدة:

- وهل أنت مقتنع فيما يروِّجون له؟!

- لا أبداً فأنا أعرف كل شيء؛ لكنك تدرك قبل غيرك مصير من يشكك بادعاءاتهم، وأصبحوا ينشرون الجواسيس في كل مكان وخاصة على الضباط، ومنذ ثلاثة أيام اقتادوا ضابطا برتبة نقيب إلى جهة لا يعلمها أحد بسبب اعتراضه على بعض ما يجري.

- لا أعلم ماذا أقول لك يا موسى؛ لكنني أشعر أنني أمام خيارات صعبة للغاية، فالموت الذي يتعرض له الناس كل

يوم لا يمكن احتماله أو تصوره.

- انتبه لكلامك، وعليك أن تكون حذرا جدا فهذه الأيام صعبة وحساسة كما تعلم، وأي ضابط أو عنصر يشكُّون بأمره لن يتورعوا عن قتله أو إخفائه.

سحبتُ سيجارة من علبة التدخين التي وضعها أمامه، فأشعلها لي، وأخذت جرعة دخان ونفثتها في الهواء بشدة، وتابعت حديثي لموسى:

- كيف تجري الأمور هنا؟!

- لقد غصَّ السجن بالنساء فكل يوم يأتون بعدد كبير منهن.

- من أين؟

- من أغلب مناطق الحراك الشعبي.

- ابتسمت ودنوت من أذنه:

- أراك تسميه حراكاً شعبياً، وقد كنت تحذرني منذ قليل.

- هذه هي الحقيقة يا محمد أنا لا أنكر أنها إرادة شعب وثورة عارمة هبت بوجه الظلم والطغيان، ولكنْ للحكمة دور هنا، وعلينا أن نتحلى بها كي نحافظ على أرواحنا.

- لا أدري ماذا أقول لك يا موسى ولكن ما أعرفه أنه لا يمكنني تحمل ما يحدث.

وضع يده على يدي وقال:

- دع الأمور لربك، فهو من يتكفل بها، وإن كان هناك ظلم فديمومته مستحيلة.

أوقف حديثنا صوت طرق الباب، فأذن له موسى بالدخول فكان أحد عناصر الأمن برتبة رقيب فخبط الأرض برجله مقدما التحية فسأله موسى عما حدث فقال:

- لدينا بعض المعتقلات ألقينا القبض عليهن بسبب مشاركتهن في نشر الفوضى في البلد.

طلب منه موسى أن يدخلهن المعتقل، شعرتُ بامتعاض

شديد، نظر إليَّ موسى وكأنه يؤيدني في شعوري، فأخبرني أن هذا الآمر يتكرر كل يوم والأشد مرارة من ذلك أن أغلب المعتقلات طالبات في الجامعة أو خريجات.

راودتني أحاسيس كثيرة، زادت من حقدي على إجرام هؤلاء الذين تعدوا حرمة كل شيء ؛ لكنني شعرت بالعجز عن كل شيء أمام مفترق طرق جميع مسالكه تقود للمغامرة أو الهلاك.

شعرت بالنعاس يداعب عينيّ فأخبرت موسى بحاجتي للنوم فابتسم وقال:

- لازال الوقت مبكراً، فالساعة لم تتجاوز الثانية عشرة، كما أن التحقيق سيبدأ بعد قليل.

- تحقيق ماذا؟!

- التحقيق مع المعتقلات.

أصابني الذهول مما سمعت، فلمته كثيراً على هذا

التصرف، فأخبرني أنها أوامر لا يمكن تجاهلها، كما أن أكثر التحقيقات تبدأ في ساعات متأخرة من الليل لإرغام المعتقلات على الاعتراف شعرت بغضب يجتاحني فدنوت من موسى أساله:

- ألا يمكنك أن تساعدهن، وتتساهل معهن في التحقيق؟

- أنت تعرفني جيدا يا محمد، ومن المستحيل أن أظلم أحداً؛ لكن تحقيقنا شكليّ فقط وذلك لبث الرعب في قلوبهن، فهذه هي السياسة المعتمدة في التحقيق، وأنا لم أختر ذلك بل هي كما تعرف أوامر لا يمكن تجاهلها.

- وهل تقومون بتعذيبهن مثل الرجال؟

- زم شفتيه بحزن وقد ارتسمت على محياه علامات الكآبة والضعف ثم تابع:

- أنا لست مدير السجن هنا بل مجرد محقق ولا يمكنني أن أتدخل بأي إجراء أو عقوبة مفروضة؛ لكن كلما أستطيعه هو

أن أجعل إدانة المعتقلة بسيطة من خلال حجج معينة أحاول اختراعها؛ ولكن رغم ذلك فالعقوبات مفروضة دون أدنى شك بذلك، وأكثر ما يؤلمني هو تعرض السجينات لكثير من حالات الاغتصاب على يدي مدير السجن بل وأكثر من ذلك مجيء ضباط آخرين إلى السجن ليأخذوا ما يريدون من المعتقلات إلى بيوت بعيدة عن الأنظار، ويقومون باغتصابهن تحت التهديد بالقتل.

كان كلام موسى كالصاعقة، فلم أكن لأتصور بيوم من الأيام أن يتجرأ شخص على اغتصاب امرأة سجينة مهما علت رتبته ومقامه؛ لكن الواقع بدا لي عكس ذلك.

كل ما سمعته من موسى كنت لأنكره لو أن شخصاً آخر رواه لي لكن موسى يعيش مع هذه الحالات، ويراها بأم عينيه بحكم عمله كمحقق.

خيرني موسى بين البقاء معه أو النوم؛ لأنه سيقوم بالتحقيق،

فدفعني الفضول لرؤية سير التحقيق وطريقته ورؤية هؤلاء المعتقلات، وما سيحدث.

أخبرته برغبتي بالبقاء فطلب أحد الحراس وأمره بإحضار المعتقلات التي تم اعتقالهن اليوم بشكل منفرد، فذهب الحارس وغاب قليلا ثم عاد بفتاة لا تتجاوز الخمسة والعشرين من عمرها تغطي رأسها بإشار ناصع البياض وجسدها "بمالطو" بني اللون، ويبدو عليها الخوف والحزن، فطلب منها موسى الجلوس، ثم سألها عن اسمها وعمرها وعملها، تمتمت الفتاة بكلمات تكاد تسمع، فأجابته عما أراد، وقالت إنها تعمل في مجال التمريض في أحد المستشفيات لم أستطع أن أكتم صمتي فقلت لها:

- لا تخافي يا أختاه، الأمر بسيط، فكوني متماسكة وقوية، وستعودين إلى بيتك قريباً

نظر إليّ موسى نظرة يكسوها التعجب والعجز فسألها:

- هل كنت تخرجين في المظاهرات؟

- مرة واحدة فقط يا سيدي

- وما هو سبب خروجك؟

- لم تجب الفتاة بكلمة واحدة بل شهقت ببكاء يجلد الشعور، فحاول موسى تهدئتها، وطلب منها عدم البكاء وسيساعدها كي تخرج من هنا، فارتسمت على وجهها ابتسامة مجبولة باللهفة والأمل.

أخبرها موسى أنه يجب عليها أن تدّعي الندم على الخروج في المظاهرات إذا ما حقق معها أحد آخر وأنها لن تكرر الأمر أبداً، بل هي مرة واحدة ونبهها بضرورة التماسك في حال فتح التحقيق مرة أخرى، فحاول مساعدتها كثيرا، وخاصة عند كتابة الضبط حيث بين أنها فتاة مغرر بها وأنها بسيطة لا تعي ما تفعل ثم نادي على أحد الحراس، وطلب منه أن يعيدها إلى زنزانتها، وألا يسيء إليها أحد أو إلى أي معتقلة

أخرى كما طلب منه جلب معتقلة أخرى؛ ليكمل تحقيقاته.

جاء الحارس مرة أخرى ومعه معتقلة أخرى، وقد كنت منكبا على قراءة بعض المحاضر التي سجلت بحق بعض المعتقلات، فلم أبصر الفتاة الأخـرى؛ لكنني شعرت بنبضات قلبي تتسارع، ويكاد يسمع دويها عندما سمعت صوت الفتاة وهي تقول:

- السلام عليكم.

كان هذا الصوت مألوفاً لدي بل مغروسا في ذاكرتي وقلبي منذ سنين شعرت بعجزي عن رفع بصري إلى صاحبة الصوت؛ لكن قوة الفضول والدهشة والفزع أشاحوا ببصري وبصيرتي تجاه الفتاة، وهنا كانت الصاعقة عندما تلاقت عيناي بعينيها فصرخت بصوت مخنوق بالعبرات:

- ابتهال،...... يا الله

- أنت ابتهال.. كيف وصلتِ إلى هنا، وماذا فعلتِ حتى أتوا

بك إلى هذا المكان الملعون؟

اغرورقتْ عيناها بالدموع، وجلستْ على الأرض خاوية القوى والإرادة فقفزتُ إليها وأمسكت بيدها، ودموعي تسفح على خدي، لم أشعر بما حولي، وقد نسيت نفسي وموسى والمكان الذي كنا فيه، ولم أشعر إلا بعبق الماضي يزكي مشاعري ويلهب عواطفي فضممت رأسها إلى صدري وقلت لها بصوت متقطع:

- لا تخافي يا ابتهال فأنا معك سأموت ألف مرة قبل أن تعاني لحظة مما أنت فيه.

- لا تخافي يا وحيدة قلبي، فروحي مرهونة بعينيك، وقلبي سابح بطيفك خلف حطام السنين.

كان نحيبها يقطع نياط قلبي؛ لكنني لم أشعر بقوة من قبل كما أشعر بها الآن فرؤيتها أحيت بي أعاصير من الإرادة، وأسكنت في ذاتي تصميماً يفوق كل تصور، أمسكت بيدها

ثم ساعدتها على النهوض، وأجلستها على الكرسي، وهي مذهولة من رؤيتي في هذا المكان شعرتُ بالحيرة والدهشة مرسومة في نظراتها؛لكن الموقف قيَّد كل تصور.

كان موسى لا يقل استغرابا عنا نحن الاثنين فاعترته الدهشة والفضول وكان يعرف بقصة ابتهال منذ أن كنا معا في أيام الدراسة فقال:

- محمد سأترككم فترة من الوقت ثم أعود.

- لم أكن لأنتبه لموسى، ولم أشعر بوجوده أو خروجه، كان كل شعور في جسدي يلتهب فرحاً وشوقاً رغم أنها معتقلة والظروف صعبة جدا؛ لكنني كنت أستمد قوتي من وجود صديقي موسى ومن رؤية حبيبتي التي تجرعتُ كؤوس الأسى على فقدانها نظرت ابتهال إليِّ نظرة عميقة فيها الشوق والحزن، وقالت بصوت خافت:

- ماذا تفعل هنا يا محمد؟!

كان تساؤلها يوحي بخوفها، فقلت لها:

- لا يا ابتهال لا تسيئي الظن بي لست متعاوناً معهم، ولم أكن ولن أكون يوماً كل ما في الأمر أن المحقق صديقي وقد جئت لزيارته فدعاني للمبيت عنده الليلة.

تهللت أساريرها فرحاً وابتسمت كعادتها ابتسامة تزيح عن كاهلي كل أنَّة سكبتها الحياة في قلبي الذي أثقله البعد والهجران، ثم قالت:

- الحمد لله أنك كذلك لقد انتابني شعور بالخوف من رؤيتك هنا، فتسرب الشك والظن إلى نفسي؛ لكن ثقتي بك كانت فوق كل ذلك، نظرت إليها بعمق يعتريه الشوق، ثم قلت:

- سبحان ربي ما أعظمه وما أجلَّ رحمته!، فقد هيأ لنا سبيلا للقاء من جديد وإن كانت ظروف اللقاء قاسية؛ لكنني أعتبر نفسي محظوظاً برؤيتك من جديد، فلكم تمنيت رؤيتك

في اليقظة والحلم؟.

علت محياها ابتسامة مقرونة بالارتياح وقالت:

- كما أنت يا محمد لم تتغير أبداً لا بطبعك ولا بشكلك سوى بعض السمرة التي اجتاحت معالم وجهك.

- هذا من كثرة تعرضي للشمس فأنا أخدم في الجيش وبقي لي حوالي شهر لأنهي خدمتي العسكرية.

كانت علامات الضيق قد لاحت في عينيها عندما علمتْ أنني في الجيش فأكملتُ حديثي:

- وجودي في الجيش لا يعني إدانتي أو أنني شريك بشيء فأنا مثلك، جلجلة الثورة ترعد في داخلي؛ لأنني عشت الظلم، ورأيته وسمعت عنه ولستِ أقل مني رغبة في الانضمام إلى الثورة ضد عقلية متحجرة من العصور الوسطى جعلت من البشر عبيداً لها دون رادع يردعها ودون ضمير يؤلم تصرفها؛ ولكن قولي لي يا ابتهال:

- كيف حالك؟ وكيف هي حياتك؟ وكيف تعيشين الآن ومع من، وأين؟

كانت هذه التساؤلات نتاج سنوات عدة عشتها بعيدا عن ابتهال فكنت أتمنى لو أعرف شيئا عنها قاطعتني وهي تقول:

- لقد تزوجت منذ سنة ونصف من ابن خالتي الذي أصرتْ عليه أمي، كما تعلم؛ ولكن....

لم تستطع متابعة الحديث بل غصتْ بعبرة مازجتها الدموع ثم استجمعتْ عزيمتها وتابعت حديثها:

- لقد اعتقلوه منذ عشرين يوما بسبب قيام أحد المخبرين بكتابة تقرير بأنه يدافع عن الثورة، ويهاجم النظام فانقطعت أخباره منذ اعتقاله، ولم نعرف عنه شيئاً حتى هذه اللحظة.

كان خبر زواجها صدمة تضاف إلى معاناة قلبي، ورغم اعتقال زوجها لم أستطع لأشعر بالفرح بل حزنها الشديد جعلني أشعر بمعانتها، وبقي حبها بقلبي كنبض ثابت لم

يصدَعه البعد والغياب، وقد سكن طيفها ذاتي منذ أن رأيتها أول مرة.

حاولتُ أن أبسّط لها الأمر علني أبث السكينة في نفسها فقلت لها:

- ثقي بالله واعلمي أن القدر أمر محتوم لا يمكن تجاهله؛ لذلك إن كان لزوجك بقية في العمر فسترينه مهما صعبت الظروف وازداد ظلامها.

- أنا أعلم كم عانيتَ بسببي يا محمد لكنك تعلم كم أحببتك وتمنيتك لكن النصيب هو من حال بيننا ولعلك وجدت فتاة تؤنس وحدتك وتنسيك أيامي.

- ارتسمت على شفتي ابتسامة يائسة فقلت:

- لازلتُ كما أنا يا ابتهال مفرغ القلب والشوق إلا من طيف تربع في محياك، فاستقر في ذاكرتي طوال السنين الماضية، أرجو أن تعذريني على جرأتي في الكلام فأنتِ امرأة متزوجة

ولا يحق لي أن أقول لك هذا الكلام، ابتسمتْ بسمة تعلوها البراءة والرقة ثم قالت:

- لا زلت يا محمد كما عرفتك بشهامتك التي ما وجدتها عند مخلوق سواك، ورغم مرور السنين بقيت كما أنت بعاطفتك المشبعة بالتبجيل والاحترام، ونبل المشاعر وصدقها، ولم أكن لأختلف عنك، فذكراك كانت تراودني كل حين ولازلت أحتفظ بأشعارك التي كنت تنسجها لي......

زوجي رجل طيب، ويحترمني كثيراً؛ لكنني حتى هذه اللحظة لم أشعر بامتلاكه لقلبي؛ لأنك سطرت في كياني ملحمة لم تهدها السنون والآلام، قاطع حديثنا موسى وهو يطرق الباب وعندما دخل جلس على مكتبه ثم قال:

- سأكتب الضبط، وسأحاول أن أبرِّئك قدر استطاعتي، ولكن هناك بعض الإجراءات يجب اتخاذها، واعلما أنني في وضع صعب جدا، فأنت تدرك مكانتك عندي يا محمد

وابتهال بالنسبة لي كالأخت لأنني أعرف قدرها عندك قاطعته قائلا:

- عليك أن تدرك يا موسى أن ابتهال لن تنام هنا، وستخرج الآن إلى بيتها ولن أتركها لهؤلاء الذئاب الغادرة.

رد بصوت تعلوه الكآبة:

- محمد لا أستطيع أن أخلي سبيلها قبل مجيء مدير السجن لأنني إن فعلت فسأقع في مصيبة قد تودي بي سأساعدها بكل ما أستطيع، وسأحاول إخراجها غداً بعد مجيء مدير السجن، سأبلغ العناصر أن يدَّعوا أنها اعتقلت بالخطأ ولا ذنب لها.

- حاولت إقناعه بفكرتي فقلت:

- وما أدرى مدير السجن بوجود ابتهال؟! ألم يعتقلوها اليوم عناصرك ومدير السجن لا يعلم من هن المعتقلات ولا عددهن؟!

- قاطعني قائلا:

- لا يا محمد بل يعلم؛ لأن ابتهال لم تُعتقل اليوم بل اُعتقلت

منذ يومين وقد تم تدوين اسمها في السجل، وهو في مكتب مدير السجن ولا يمكن الإفراج عنها إلا بمعرفته لكن اطمئن سأبذل جهدي لإخراجها.

نظرت إلى ابتهال وقلبي يعتصر حسرة ووجعا، فما كنت لا أتخيل يوماً أنها ستدخل السجن وتعاني آلامه، كما أن الوضع اليوم أشد خطورة مما سبق، ووجودها هنا مخيف ومرعب؛ لأنها معرضة لكل شيء وخاصة الاعتداء من قبل مدَّعي القانون والمتغنين بالوطنية، فوقفت وأشرت بأصبعي إلى موسى بحزم تعلوه الإرادة:

- اسمع يا موسى ابتهال لن تظل لحظة واحدة هنا حتى لو قُتلتُ لأجل ذلك لن أستطيع أن أتخلى عنها في هذه الظروف الصعبة قاطعتني ابتهال:

- لا أخفي عنك يا محمد أنني تعرضت للإهانة وللتعذيب في اليومين الماضيين ولكن اعلم أنه لم يلمسني أحد منهم

لأنني أموت ألف مرة قبل أن يفعلوا ذلك كما أن صديقك ساعدنا كثيراً، ولم يقصر معنا في شيء؛ لذلك لا ترغمه على أمر فوق طاقته فتلحق الأذى به بسببي؛ لذلك دعه يفعل ما يراه مناسباً فهو يعلم ما يفعل.

شعرت بالحيرة تجتاحني في هذا الموقف، إذ لا يمكنني أن أخرجها بالقوة من السجن لوحدي، كما أن وعود موسى بمساعدتها بثت الراحة في نفسي بعض الشيء، فسألتُه عن المدة التي تستغرقها للخروج، فأكد لي أنها مجرد إجراءات بسيطة، وستخرج ما إن يوافق مدير السجن، وسأعمل على إقناعه من خلال تبرئتها بل سأحاول إخراج من أستطيع من المعتقلات، لم يكن أمامي إلا الانتظار والاعتماد على وجود موسى فهو السبيل الوحيد الذي يمكنه تخليص ابتهال مما هي فيه.

كانت الساعة قد أشارت إلى الثانية والنصف فجراً، فخيّر موسى ابتهال بين البقاء في المكتب أو الذهاب إلى زنزانتها، فاختارت الذهاب خشية أن تظن بها رفيقاتها سوءاً.

شعرت نفسي مقيداً عن كل شيء فأصبح الموقف أشبه بحلم يلوح بين الفرح والجزع

حاول موسى بث السكينة في نفسي من خلال الوعود التي قطعها لي بأنه لن يتركها وحيدة.

نظر إليّ موسى وابتسم ثم قال:

هدِّئ من روعك يا صديقي لأنَّ ابتهال في أيدي أمينه، وليست عند " الشبيحة " شعرت بفزع ونفور عند سماع تلك الكلمة التي أعادت بي إلى الذكريات القديمة فقلت له:

- ألا زلتَ تذكر تلك الأيام، وتذكر الشبيحة وما كانو يفعلون في الساحل؟!

- نعم لكنهم اليوم موجودون بكثرة

- أعلم ذلك يا موسى فالجيش يعج بمثل هؤلاء الذين تاهت معالم الإنسانية خلف جشع ساد رغباتهم.

- هذا صحيح لكن الموجودين اليوم يتميزون بحقد أعمى

وقد انتشروا في أماكن كثيرة.

سألته مستغرباً:

- أين، ولماذا؟!!

- في كل المراكز الأمنية وهناك خطط لالتحاقهم بالجيش.

كنت قد سمعت من أحد الضباط أن هناك شبانا سيلتحقون في الجيش تطوعاً ورغبة منهم فتابعت قائـــلا:

وكيف عرفت ذلك يا موسى:

- إنني أراهم كل يوم فقد أصبحوا جزءاً من عناصر الأمن، وأصبح النظام يعول عليهم بشكل كبير وذلك بسبب ولاءهم المطلق له.

- ومن أين يأتون بهؤلاء الشبيحة؟؟

- بعضهم من منطقة الساحل ممن ترعرعوا في كنف أسيادهم؛ وهم يعملون على وتر طائفي بغيض، وفي الفترة

الأخيرة قاموا بإخراج بعض المجرمين والقتلة واللصوص من السجون وجندوهم كشبيحة كما أن هناك دفعات كبيرة تأتيهم من بعض الدول.

- وما هي الأعمال الموكلة إلى هؤلاء الشبيحة؟

- لا يقتصر عملهم على شيء معين بل يعملون بكل شيء دون رحمة أو رادع أخلاقي لكن أغلب ما يقومون به هو الخطف والقتل والاغتصاب لأناس ثاروا في وجه النظام كما يحاولون بث الرعب في قلوب الناس لردعهم عن مواقفهم.

أصبح حديث موسى هاجساً يطرحني بين نارين، بين حالة ابتهال وبين ما نحن مقبلون عليه في بلد لم يهنأ أبناؤه بعيش كريم يوماً إلا ويد الظلم صافعة لكل كرامة عيش، وقد تجاوز عناصر الأمن كل الأعراف الإنسانية من خلال تسلطهم المقيت على رقاب الناس ولعابهم السائل خلف جمع المال، فالرشوة وإذلال البشر من قبل هؤلاء هو العنوان الأكبر لقيمهم.

تثاقل النوم في عيني بشكل كبير فطلب موسى مني إراحة نفسي بالنوم وخصوصا أن خيوط الفجر بدأت تلوح.

ولم أكد أضع رأسي على المخدة حتى غططت في نوم عميق راودني كابوس مرعب أرّق راحتي حيث وجدت نفسي في دائرة ضيقة والنيران تحيط بي من كل جانب فاستيقظت على صوت طرق الباب، فتح الباب موسى وهو يقول:

- أصبح الفطور جاهزاً

- لاح في ذهني طيف ابتهال فسألته عنها.

- اطمئن وضعها جيد وأمرتهم بتلبية كل ما تحتاجه وتقديم لها الفطور.

- أريد أن أراها.

- حسنا يا صديقي ستراها، ولكن عليك تناول الفطور أولا.

لم أكن أشعر بحاجة لشيء سوى رؤية وجه ابتهال من جديد رجوت موسى أن يجعلني أراها، فأمر أحد الحراس

بإحضارها وبعد قليل جاءت ابتهال، وحالتها يرثى لها فالسعال لديها لا يتوقف ووجها توشح بالصفار، فارتمت على الكرسي بتثاقل، فازدادت مخاوفي لأمر لم يكن بالحساب نظرت إليها فقطعت الصمت المريب بقولي:

- بماذا تشعرين وماذا حدث لك؟!

- أشعر بألم في معدتي يبدو أنني تعرضت للبرد.

- قاطعنا موسى قائلا:

- لا بأس، سنأخذك للمشفى لنطمئن عليك.

- استعجلته بذلك فطلب سيارة مع ثلاثة حراس وعندما هممت بالركوب معهم منعني موسى وهو يقول:

- لا تذهب لأن ذهابك سيزيد الأمر سوءا لأنَّ هناك جناحاً خاصاً بالمعتقلات يشرف عليه عناصر أمن الدولة، ويدققون بكل شيء حتى بشخصيات الأطباء والممرضين فإذا ذهبت ستلحق الأذى بابتهال وبنفسك أيضاً قلت له:

- أنا لست مدنياً أنا ملازم بالجيش.

- هؤلاء لا يفهمون بهذه اللغة فالأمر لديهم سيان إن كنت مدنياً أو عسكرياً لأنهم بالأصل يتجسسون على عناصر الجيش فكيف ستدخل إلى هناك؟!.

ذهبت السيارة تحمل ابتهال، وتحمل قلبي الذي أضناه البعد والألم، حاول موسى تهدئتي فقال:

- احمد الله أنني أنا الموجود هنا، ولو كان أحداً غيري لرماها في زنزانتها حتى تموت لأنهم لا يملكون قلوباً تنبض رأفة بآلام الآخرين، وحالات الوفيات في السجن ازدادت كثيراً إما بسبب التعذيب أو بسبب الأمراض فاطمئن؛ لأن ابتهال ذهبت للمشفى، قلت له:

- وأنت، هل ستبقى هنا بعد كل هذه الجرائم؟!

- لا، لكنني أنتظر الفرصة المناسبة لأنهم مشددون على كل شيء.

طلب موسى أن أذهب إلى مكان آخر لأن موعد مدير السجن

قد اقترب ووجودي سيعقد الأمور لأنه شخص متغطرس، وينفر من كل ما يراه.

كانت علامات الخجل والاعتذار بادية عليه فقلت له:

- لا عليك إنني أتفهم الأمر سأذهب، وسأتصل بك لأطمئن على حال ابتهال وإياك يا موسى أن تتركها لأنني لن أسامح نفسي أو أسامحك.

وعدني خيراً ثم صافحته، وذهبت، فقررت أن أترك الجيش وأنظم للثوار، لكنَّ وجود ابتهال في المعتقل قيد قراري، فخشيت أن أبتعد عن دمشق وتكون ابتهال بحاجتي، لذلك قررت البقاء، وعدت إلى الفرقة ولم أكن أشعر برغبة بأي شيء في الحياة، فأردت أن أجلس في مكتبي أناجي همومي وآلامي.

الفصل العاشر

دخل عليّ صديقي بالجيش عبد القادر، وكان يعلم بقصة حبي لابتهال فأخبرته عما جرى اليوم معها فأصيب بالذهول مما حدث وسألني باستغراب:

- ألا زلت تحبها؟ أخذت جرعة شهيق عميقة، ونفختها في الهواء ببطء شديد فأجبته:

- كيف لا أحبها؟! وهي التي جعلت مني كتلة من المشاعر تحركها الأشواق كلما عصفت بها رياح الذكريات، أوتحسبني أستطيع نسيانها أم أن لهيب الحب لم يلفح جدار قلبك يوما؟! إن ذكراها يا صاحبي يرقد في مخيلتي مذ رأيتها أول مرة، ولازلت احتفظ برسالتها الوحيدة والتي تشعرني دائما أنني مميز وخاصة أنها كتبتها بخط يدها وهي تقول:

لقد أسرتَ فؤادي بابتسامتك التي أحيت عواطفي وألهبت

مشاعري، وجعلتني أسيرة الذكرى والشوق.

وكم لاح في مخيلتي أول لقاء بيننا عندما كنتُ أجلس في المقعد الثاني ودخلتْ قاعة المحاضرات فشعرتُ أن شيئا ينتشل انتباهي ويصبه في عيني، فتخطفه أحداقها الشاخصة إليّ شعرت بقشعريرة تدوي في صدري، وكأنني أريد أن أهبط من مكان عال،ودخلت أعيننا في عراك أوقفه انتباه الطلاب الزائد.

كانت في العشرين من عمرها تجمع في عينيها بريقا يذهل الأبصار يرقد خلف نظارة أنيقة لا تكاد تُرى وبياضا مشرباً بالحمرة ارتكز في وجنتيها وأنفاً إغريقياً يتميز بالأناقة وجمال المظهر، وطولاً يجسده شموخ متواضع قاطعني (بكحة مثقلة بالزكام:

- أظنك يا صديقي واقعاً في الحب، وأنت الذي طالما تغنى (بالعزوبية) والسخرية من كل شيء يسمى حباً، أبهذه السهولة المفرطة استرجعت كل ذكرياتك لحب كان وليد الصدفة لم يكلل بالتقارب؟!

أجبته والبسمة تفترش شفتيَّ دون أن أدري:

- لا أستغرب منك هذا الكلام يا صديقي؛ لأن الحب لم يطرق باب قلبك يوماً، وكيف يفعل وأنت الذي يعتبر النساء سلعة بالية أكل الدهر وشرب على التغني بها.

بداية الحب يا صاحبي ما هي إلا شعاع تبوح به العيون فتأسر فؤاد من يتأثر به ويتحول هذا التأثر إلى القلب، فيسرع فيه النبض ويحيله إلى بوتقة من المشاعر تلتهب كلما لاح طيف الحبيب. آه يا صديقي لو أن القدر ألهمك شيئاً من الهيام لعشت حالة من الثمالة تبث فيك الجنون والرغبة عندها فقط تشعر بما تجيش به نفسي أجابني بنبرة فيها بعض التأييد:

- ربما يكونه معك حق فيما تقول؛ ولكن هل أنت على يقين أنها كانت صادقة المشاعر تجاهك ومن نبضات قلبك المثقلة بالتباريح والشجو؟!.

دسست يدي في جيبي وأخرجت منديلا أبيض اللون فمسحت فيه بعض حبات العرق المتربعة على جبيني وأجبته:

- وهل تحمل العيون إلا الوله والصدق؟ كل شيء يستطيع أن يكذب به الإنسان إلا الحب والإيمان؛ لأن مرقدهما القلب الذي صاغه الخالق بجملة من المشاعر والأحاسيس، وبث فيه الرقة والألفة.

والحب يا صاحبي حرفان يلوحان في مقدمة المعرفة بوهج بريء لا تشوبه شائبة إلا أن لهما من المعاني ما تعجز الألسن عن وصفه والأقلام عن رسمه، فهو يبث في النفس البشرية ضدين لا يجتمعان: طمأنينة لا يعيها إلا من رقصت مشاعره على أنغام تراتيل القلوب -وأسى يأسر فؤاد من عاش محباً يتجرع كؤوس الفراق والشوق، فضاع في متاهات النفس الراغبة لارتشاف لظى اللقاء آه يا رفيق أناتي لو أنها بقيتْ على العهد لشعرت أنني أملك نفسي لكنني - عندها رن جرس التلفون فشعرت بالغبطة عندما رأيت موسى يتصل بي فتحت الخط بلفهة:

- موسى ماذا حدث لابتهال أخبرني

رد بصوت مرتجف يكسوه الانكسار:

- سامحني يا محمد لأنني خذلتك ولم أوفِ بوعدي لك، لقد نقلوا ابتهال إلى سجن آخر؛ لكنني لم أستطع أن أعرف إلى أين؟.

أغلقت الخط بوجهه وارتمى جسدي على الكرسي يجتاحه العدم والاحتقار لنفسي التي خذلت أعز من عرفت، قام عبد القادر من مكانه فناولني كأس ماء تجرعتها دون دراية أو شعور، سألني عما حدث، فأخبرته، فحاول أن يقلل من لومي لنفسي؛ لكنني لم أشعر بشيء سوى بكره استوطن قلبي، فأحاله إلى جحيم أسود.

الفصل الحادي عشر

كان ضابط الأمن يجند بعض العناصر المدنية؛ لتقوم بمراقبة تحركات الثوار وكتابة التقارير عنهم، فكنت أحاول معرفة هؤلاء لكنهم يأتون متخفين.

شعرت بوحدة موحشة، فذهبت إلى عبد القادر، وجلست معه فهمس لي:

- هل عرفت بأمر المعتقلين؟

- أي معتقلون؟!

- لقد جاؤوا في ساعة متأخرة من الليل الفائت بعدد من المعتقلين المدنيين.

شعرت بضيق يجثم على صدري فقلت:

- لازالوا يعتقلون الناس بشكل جنوني لا مثيل له.

رد عبد القادر بصوت خافت:

- الأخطر من ذلك كله أن السجون امتلأت ولم تستوعب الأعداد الكبيرة، فقاموا بإرسال بقية المعتقلين إلى الثكنات العسكرية.

- علينا أن نكون حذرين يا عبد القادر، فالأيام القادمة ستكون صعبة جداً.

- هذا صحيح وخاصة أنهم قاموا بنشر عناصر مخابرات في القطع العسكرية ليتجسسوا على الجنود والضباط خشية الانشقاق.

- أعلم ذلك واستعد كما قلت لك للأيام القادمة.

نظر إليَّ عبد القادر باستغراب فقال لي:

- كأنك تلمح لشيء ما.

- وهل سنبقى مكتوفيَّ الأيدي؟

- أنا معك في كل شيء وسنفعل ما نراه مناسبا.

ودعته وتوجهت إلى مكتبي، وكانت الساعات تمر بصعوبة

بالغة، فالأمور في تعقد والقتل أصبح لا يطاق والأخبار باتت تؤرقني بشكل كبير وما زاد الأمر صعوبة هو إلغاء عمليات التسريح في الجيش فكل الجنود الذين أنهوا خدمتهم، لم يقوموا بتسريحهم بل أبقوهم في أماكنهم بحجة الظروف التي تمر بها البلد.

كانت الساعة تشير إلى الثانية ليلا وكنت منكباً على متابعة الأخبار فدخل إليَّ عبد القادر يلهث وهو يقول:

- اتبعني هناك حالة إعدام سينفذها ضابط الأمن ببعض المعتقلين المدنيين.

هرعنا بسرعة إلى الساحة العامة فأمر ضابط الأمن باستدعاء جميع العساكر والضباط فحضر الجميع في الساحة العامة.

كان هناك تسعة مدنيين معصوبي الأعين، ومكبلين، وقد بدت عليهم آثار التعذيب بشكل يحرق القلب، وكان الصمت يخيم على المكان من هول الموقف، وفجأة نطق ضابط الأمن قائلا:

- هؤلاء مجموعة من المجرمين الخارجين عن القانون الذين عملوا على إضعاف عزيمة الأمة ووهن نفسيتها والتظاهر بحجة الحرية سأعلمهم اليوم كيف تكون الحرية، وسترون ذلك بعيونكم كي يكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه الخروج على الدولة والوطن.

أمر بعض الجنود بصف المعتقلين جنب بعضهم البعض، ثم جاء بوعاء كبير فسكب ما بداخله على الجنود ثم أوقد بهم النار، فتعالى صراخهم يحرق معالم الإنسانية، وما هي إلا لحظات حتى صمتوا حيث شُوهت جثثهم وتوقفت أرواحهم، وكان الموقف يبث الرعب في أرجاء النفوس.

وقف الجميع في ذهول شاخص، فرؤية الإنسان يُحرق بالنار ويُشوى لحمه أمر يحرق كل شعور ينبض بإنسانية الآدميين.

لقد تعمد ذلك الضابط حرقهم أمام الجنود ليبث الرعب في قلوبهم، ويمنعهم من ترك الجيش أو معاداته.

كنت أظن أن الشبيحة هم فئة موجودة في مدينة اللاذقية فقط لكنني اكتشفت أنهم موجودون في كل مكان يمكن أن يستفاد منه في هذا البلد وسنوات الجيش بينت لي الكثير منهم ممن استقوى على العباد بمعاول الباطل.

في اليوم التالي عرفت أن هناك ستة جنود مفقودين، فعلمت من أحد أصدقاء أحدهم أنهم انشقوا عن الجيش.

بعد تلك المواقف قررت وعبد القادر ترك الجيش والالتحاق بصفوف الثوار، ورغم المراقبة الكبيرة من قبل عناصر الأمن إلا أنني استطعت أن أنسق معه على صيغة للخروج.

كانت الساعة حينها تشير إلى الثانية ليلاً، وكان المنفذ الوحيد للخروج من الفرقة طوقا من الأسلاك الشائكة تبعد عن مكتبي حوالي ثلاثة كيلو مترات ارتدينا ملابساً خفيفة ثم انطلقنا تحت جنح الظلام هائمين على وجوهنا، فركضنا بسرعة لم يكن لها مثيل

حتى وصلنا إلى شريط الأسلاك الشائكة، فزحفنا من تحتها وخرجنا، ثم تنفسنا الصعداء وشعرنا براحة فقدناها منذ زمن بعيد.

بدأ المطر يهطل والليل يشتد ظلمة وأمامنا واد سحيق بعده جبل متوسط العلو فكان علينا أن نقطعهم خلال الليل لكننا سمعنا أصوات طلقات متسارعة خلفنا تماما، فأدركنا أنهم اكتشفوا أمرنا، فواصلنا الركض.

- بدأتُ النزول من سفح الوادي، وأنا لا أرى شيئاً أمامي من شدة الظلام الذي تكلله سحائب المطر، فتوقفت لحظة، ولم أشعر بوجود عبد القادر فناديته بصوت خافت؛ لكنه لم يجب، كررت النداء مرات عدة بصوت أعلي ولم يرد عليَّ أحد، فانتابني شعور بالخوف من فقدان عبد القادر خشية أن يكونوا قد أمسكوا به.

جلست على الأرض، ولم أكن أعرف ماذا أفعل؟ فهل أتابع طريقي أم أعود للبحث عنه، كانت ملابسي بدأت ترشح من

الماء والأرض باتت موحلة، فرجعت مسافة ليست بالطويلة علني أحظى بعبد القادر لكنني لم أجده فتابعت طريقي في الوادي، والحزن يمرع في داخلي.

كان صوت الرعد قوياً مصحوباً ببرق يكاد يضيء الأرض بعض الأحايين، فشعرت بالتعب والبرد، لكنني واصلت طريقي، فأحسستُ أن الدم قد تجمد في عروقي ووقف شعر رأسي عندما شعرت أن أحداً ما يضع يده على كتفي، فسحبت مسدسي ووضعته عند جبينه، فكانت فرحتي لا تضاهى عندما عرفت أنه عبد القادر ضممته بقوة، والسعادة تغمرني فسألته:

- أين كنت ولماذا فقدتك؟!

- لقد تعثرت فالتوت قدمي، فشعرت بألم شديد، ولم أستطع أن أناديك خشية أن يكونوا خلفنا، فيسمعونا ولما هدأت آلام قدمي تابعت طريقي حتى وجدتك.

تابعنا سيرنا، ولم نشعر بالأمان إلا عندما وصلنا قعر

الوادي عندها جلسنا لنستريح مما كنا فيه، شعرت بتعب ينال من جسدي؛ لكن عبد القادر أشار عليَّ أن نتابع سيرنا قبل أن يكشَّف الصباح، فتابعنا المسير ورغم شدة التعب والمعاناة، فقد كنت أشعر براحة غامرة تتربع في صدري لأنني نبذت الظلم والحقد والقتل بخروجي هذا، وقد كان شعور الخطيئة يجثم على صدري عندما كنت في الفرقة، فأخبرت عبد القادر بذلك وبين لي أنه يبادلني الشعور ثم قال:

- لي ابن أخت مجند، وكنت أقوم بزيارته ويأتي لزيارتي، فشعرت في آخر مرة اتصلت بها عليه أنه في وضع غير طبيعي، وحديثه يوحي بالخوف والجزع، ولما سألته عن سبب ذلك قال:

- لقد ذهبنا يا خالي منذ فترة في مهمة إلى مدينة الرستن في حمص نبحث عن مطلوبين قالوا إنهم إرهابيون، فدخلنا بيت أحدهم؛ لكننا لم نجده ووجدنا أباه وأمه وكانا طاعنين في السن وكان معهما فتاة صغيرة لا تتجاوز السبع

سنوات، فقامت المرأة العجوز أم الشخص المطلوب وأحضرت لنا طعام الفطور وكنا أربعة جنود والضابط برتبة نقيب فجلسنا، وفطرنا وبعدما انتهينا أخرج الضابط مسدسه فقتل المرأة العجوز وزوجها فأصبت بالقشعريرة مما رأيت، وقبل خروجه طلب منا أن نقتل الطفلة الصغيرة، ونلحق به وعندما ذهب أخذت الطفلة وصادفت تاكسي أجرة فقلت للسائق:

- خذ هذه الطفلة وأبعدها من هنا وحاول أن تحافظ عليها من كل سوء، فحاول السائق أن يرفض فقلت له:

- هذه الطفلة أمرنا الضابط بقتلها فإذا لم تأخذها فسوف تموت فوافق بعد ذلك على أخذها

ولحقنا بالضابط أنا ورفاقي، وبراكين الحقد تغلي في صدري وكان أحد الجنود صديقاً لي فشعر بما شعرت، فهمس بأذني أن هذا الضابط يجب أن يموت، أما المجندان الآخران فقد كانا خائفين رغم أنهم غير راضين عن تصرف الضابط،

وعندما وصلنا إلى أحد الحواجز الذي كان الضابط يقف عنده، أخبرناه أننا قتلنا الطفلة ثم ربت على كتفي وهو يقول: أحسنتم صنعاً أنتم جنود الوطن لولاكم لضاعت البلاد، وعندما حل الليل اختارني الضابط أنا ورفيقي الذي أثق به لنرافقه في سيارته إلى حاجز آخر ليطمئن إلى جاهزيته وقبل وصول الحاجز لقمت بندقيتي، ووضعت الفوهة عند رأسه فقلت له:

- الطفلة تبلغك السلام وأرسلت لك هذه الهدية، وأطلقت النار، فخرقت الرصاصة جدار رأسه فرمينا جثته وتابعنا الطريق بعيداً عن كل الحواجز بعد ذلك تركنا السيارة ووصلنا إلى جماعة تعاطفت معنا، ولا زلنا عندهم، وهذه يا خالي هي قصتي منذ خروجي حتى وصولي.

أعجبتني إنسانية ورجولة ذلك المجند فقلت:

- أنت تعلم يا عبد القادر أن أكثر الجنود غير راضين عن أسلوب القمع والقتل والتنيكل وابن أختك هذا رجل

حقيقي لأنه قاوم الظلم، وقتل المجرم الذي أنهى حياة أناس أبرياء لا ذنب لهم، رد عبد القادر:

- لم أعد استغرب شيئا أسمعه أو أراه لأن ما يحث أمر واقعي رغم أنه لا تتصوره العقول البشرية.

بدأت خيوط الفجر تلوح، وكنا قد بدأنا باجتياز الوادي، فبدأت أشعر بقلة الأمان ؛ لأن المنطقة التي نحن فيها وعرة جدا ومشهورة بكثرة الأفاعي السامة إضافة إلى الكمائن التي يقوم بها أفراد الجيش للمنشقين، وفجأة وبدون وعي سمعت طلقات نار كثيفة اخترقت إحداها صدر عبد القادر فأردته قتيلا فركضت إليه لكنني فقدت الشعور بما حاولي، ولم أستيقظ إلا بعد ثلاثة أيام في المستشفي حيث كنت فاقداً للوعي بسبب رصاصة استقرت في كتفي فعرفت أننا تعرضنا لكمين من قبل عناصر الأمن والجيش بكيت بحرقة على عبد القادر رغم آلامي التي أنهكت جسدي، وسلسلة الحديد التي تربط

قدمي بالسرير الذي أرقد عليه.

جاء إليَّ أحد الأطباء عابس الوجه محمر العينين وهو يقول لي:

- لقد عشت رغم أنك لا تستحق الحياة لأنك مجرد كلب هرب من الجيش لكن لا تفرح كثيرا فلا تظن أنهم أنقذوا حياتك؛ لتعيش بل لتذوق طعم الموت البطيء وتعترف بمن كان معك وكيف خرجت.

- لم أستغرب ما سمعت من هذا الطبيب؛ لأني عرفت أنهم يجندون في المشافي العسكرية أطباء تابعين لهم بالولاء والطاعة، وبعد قليل جاء أحد الضباط برتبة رائد ومعه ثلاثة جنود فقال:

- أخيراً استيقظت أيها الحقير، سأجعلك تتمنى الموت آلاف المرات، ثم بصق عليَّ، وذهب شعرت بالخوف يرعد في ذاتي؛ لأنني أعرف هؤلاء المجرمين وأعرف طرق التعذيب لديهم، وكيف يتفننون في ذبح الإنسان؛ لكنني رغم ذلك

ما شعرت بالندم لحظة واحدة من انشقاقي عن الجيش على العكس تماما فربما تجتاحني آلام جسدية إلا أن ضميري في غاية الراحة، رقدت في المشفى فترة من الزمان رأيت فيه أسوأ معاملة عرفتها في حياتي، وعندما بدأت أتماثل للشفاء أخذوني إلى السجن.

الفصل الأخير

كان الضابط يحقق معي كل يوم في ساعة متأخرة من الليل، وأنا مجرد تماما من ملابسي، وبعد الانتهاء من التحقيق تبدأ ساعات التعذيب التي جعلتني أشيب قبل مشيبي، وقد كنت أقضي الليل مربوطاً من يدي ومرفوعاً إلى السقف وقدماي تكادان تلامسان الأرض أما أظافري فلم يبق منها شيء، فقد قلعوها كلها، وضاعت ملامح وجهي خلف حرقه بالسجائر.

كانت رائحة السجن نتنة جدا وكان الموت يحدث كل يوم وأغلب الموتى هم نتيجة التعذيب بطرق يندى لها الجبين.

أصبحت هزيل الجسد ضعيف البنية مشوه المعالم من قلة

الطعام الذي نأكله فأغلب طعامنا هو الخبز اليابس العفن ومرات كثيرة تمضي الليالي دون أن نفتح أفواهنا لنسد رمقنا بكسرة خبز أو سواها.

كان السجن عالماً آخر مكسواً بالبشاعة والحقد والإذلال والوحشية المفرطة التي ما عرفها الوجود يوماً.

كان الوقت يمر مثقلا بالموت البطيء وموشحاً بالأنين الذي بات خافتاً مرات وصاخباً أخرى إما لضعف تجهم في بنية أحد السجناء أو لتعذيب خرق شعور آخر.

الوقت يمر والساعات تشبه بعضها بعضا إذ لا معرفة لنا بليل أو نهار فقد غابت الشمس عن رؤيانا منذ وطئنا السجن وأصبحت أيامنا كلها مكسوة بالسواد.

كان الموت لأغلبنا هو أعظم عطاء يوهب لنا لأنه الخلاص الوحيد والأخير من عذاب أنهك الروح والجسد وأماط الغشاوة عن الآلام المفرطة حتى

بات من يموت محسوداً بيننا؛ لأنه غادر صومعة هتك الإنسانية وتشويه الذات.

أصبحت الآهات كالزفير تطلق من أفواه المعتقلين إما لعذاب يتسلى به أحد السجانين أو لجوع خرق أمعاء أحدنا، أو لمرض خرق جسد آخر.

مرت الأيـام دون أن نشعر بها لأن شعورنا فارق الإحساس بالأشياء إلا عن ألم يأبى الرحيل ومنذ زمن فقدت ذكرياتي عن العالم الخارجي لأنني لم أعد أملك القدرة على ذلك، فأصبحت عاجزاً عن تذكر من هم في الخارج حتى أقرب المقربين.

شعرت أنني كنت في غيبوبة استمرت عشرات السنوات رأيت فيها الوطن ممجداً ومعظماً من قبل حملة السلاح، وكل ذويه، فلما أفقت منها وجدت الوطن مجرد عنوان باهت يرقص على شفاه المجرمين الذين ادعوا النضال

منذ أعوام طويلة على عدو ما كنا لنراه أو حتى نشعر به لكنه اختزل في ذاتهم المليئة بالحقد وديمومة القتل يُمارس على مخلوقات من جنس البشر لهم نفس الروح والعيون والأجساد لكنهم مختلفون جداً بالتعرض للقتل والترويع والتشريد مختلفون بالجوع الذي ينهش بطون صغارهم وسط عالم توشح بالسواد وصم الآذان وكمِّ العيون عن وطن يستباح كل لحظة ألف مرة فكانت صرخات الطفولة لعنات تجلد كل من لم يقف لحظة ويسأل للخلاص سبيلا.

كم كنت جاهلا وأحمقا بظني المعتوه عندما كنت أشعر بوجود البشرية مغطاة بالعطف والشعور، لكنني أفقت على بشرية خرقاء لا ينتفض بها حسٌّ عندما يتبول الأطفال ارتعاشاً على جز السكاكين وهي تفصل أعناقهم عن أجسادهم، وعلى نحيب العذارى وهن يجمدن في الأرض على وقع الخطيئة الآثمة.

فبعد اليوم سأهجر الشعور وأحرق كل الدروب التي تؤدي إلى الآخرين، وأعلن الولاء للأرض فقط للأرض المعفرة بالدماء وهي تنوء بثقل وكثرة الذبح كل يوم وتبكي أبناءها الراحلين إلى السماء.

في ليلة ما لا تشبه الأخريات لا أعلم تاريخها أو وقتها قرقع باب الزنزانة، وقرقعت القلوب على صداه، فقدم اثنان من السجانين ونادوا باسمي.

كانت فرحتي لا تضاهى؛ لأنني أدركت أنه قد حان موعد الخلاص من عذابات شلت كياني ووجداني، أخرجوني إلى ساحة كبيرة نُصبت عليها أعواد المشانق بشكل مستقيم، وكان تحت كل مشنقة كرسي من الخشب اقتادوني إلى هناك، وربطوا يديَّ خلف ظهري، وكانت تلك آخر لحظات رؤيتي للدنيا عندما أغلقوا عيني بشريط أسود وأوقفوني على كرسي الخشب ثم قام أحدهم بوضع الحبل حول

عنقي، وقال هازئاً:

- سلم لي على الجنة تبعك.

كانت أنفاسي تتسارع ومخاوفي تتعاظم، حاولت التماسك؛ ولكن الحبل كان قاسياً على عنقي كقسوة هذا العالم الموحش، وبلحظة ما توقف كل شيء.



فهرس المحتويات

ليالي الشبيحة

أمر بعض الجنود بصف المعتقلين جنب بعضهم البعض ، ثم جاء بوعاء كبير فسكب ما بداخله على الجنود ثم أوقد بهم النار، فتعالى صراخهم يحرق معالم الإنسانية ، وما هي إلا لحظات حتى صمتوا حيث شوهت جثثهم وتوقفت أرواحهم ، كان الموقف يبث الرعب في أرجاء النفوس .

وقف الجميع في ذهول شاخص ، فرؤية الإنسان يُحرق بالنار فيُشوى لحمه أمر يحرق كل شعور ينبض بإنسانية الآدميين .
لقد تعمد ذلك الضابط حرقهم أمام الجنود ليبث الرعب في قلوبهم ، ويمنعهم من ترك الجيش أو معاداته.
كنت أظن أن الشبيحة هم فئة موجودة في مدينة اللاذقية فقط لكنني اكتشفت أنهم موجودون في كل مكان يمكن أن يستفاد منه في هذا البلد وسنوات الجيش بينت لي الكثير منهم ممن استقوى على العباد بمعاول الباطل .

